جسور

عربية أميركية، متعددة اللغات، للتبادل الثقافي والتفكير في المستقبل

٨/٧

الثقافة، الإبداع، المنفى

محمود درويش ، سيد حسين نصر، جبرا ابراهيم جبرا
صادق جلال العظم، محسن مهدي، روجر ألن، دانيال مور، توماس لامونت
ميشال سارد، ديانا هداوي، لورا ميتشل، محمد السعدون، تيسير ناشف
جوليا مراد جبرا، اسرائيل شاحك، فوزي الأسمر
شريف الموسى، أحمد طه، كلاريسا بيرت، منى عسلي، مهجة قحف
محمد سعيد الصكار، سنان أنطون، قاسم الوزير، قاسم حداد
محمد المكي، سعيد الكفراوي، دنيس جونسون دايفيس
ابراهيم الحريري، بثينة الناصري، يوسف سعيد

ضيفا التحرير
عيسى بُلاطة و حسين هداوي

رئيسا التحرير
منير العَكش و أميرة الزين



١٩٩٦



Blackfeet
burial platform,
1912

«ضريح» الزعيم
الهندي بلاكفيت

شعبي يريد السلام
كل (الهنود) الحمر يريدون السلام.
أما هذا الأبيض الغريب القادم
من أماكن بعيدة ليأخذ أرضنا
فإنه لا يعرف السلام
إلا فوق جثتي الهامدة

الزعيم الهندي تيكومسه، ١٨١١

الثقافة، الإبداع، المنفى





من *North American Indian Wars* لريتشارد ديللون Richard Dillon

«الهندي الصالح الوحيد هو الهندي الميت»

شعار أطلقه الجنرال فيليب شيريدان Philip Sheridan و تبناه الجيش الأميركي

« أفضل الغوييم لغير اليهود اقتله، وأفضل الأفاعي اسحق رأسها»

شعار أطلقه الحاخام شمعون وتبناه الجيش الإسرائيلي

الجلاد المقدس

عن الأساطير العبرية التي تأسست عليها أميركا وعن أول خمسمائة سنة من حرب «اسرائيل المقدسة»

الجلاد المقدس

في ربيع ١٩٩٢، عندما كانت قصيدة محمود درويش «خطبة الهندي الأحمر» تشق الضوء، أعلنت «النيويورك تايمز» عن اكتشاف ثقافي غني بالدلالات والعبر الانسانية، وهو أن «خطبة» الزعيم الهندي الأحمر سياتل Seattle التي ألهبت مخيلة الأميركيين وكانت إنجيلاً لحركات البيئة ومحبي الطبيعة وأصدقاء الأرض ومناضلي الحقوق المدنية وأنصار حوار الحضارات، وكانت نصا شعريا صوفيا انسانيا محببا تراه في الكتب المدرسية ورسائل التبرعات للجمعيات الخيرية، هي خطبة مزورة منحولة لفقها استاذ أدب في تكساس على منوال «الروح الهندية» النبيلة التي أثبتت دائما تفوقها الأخلاقي وسموها الانساني على جلادها الأوروبي.

خيبة إضافية، وضاعت في الزحام. لكنها كانت مُرة وموجعة، لا لأنني رأيت في خطبة الزعيم سياتل وجها عربيا عليلا فترجمتُها وقدمت بها للعدد الذي ضم «خطبة الهندي الأحمر» محمود درويش أيضا، وإنما لأن هذا التزوير فضح أمام عيني قسوة العبث التي يتسلى فيها الجلاد بلسان ضحيته. لم أعلم بقصة التزوير إلى أن كتب إلي مايك هولي إيغل Mike Holy Eagle وهو صديق هندي من قبيلة سو Sioux يخبرني به متألما ثم يقول:

> «وإذن خُدعتَ(...) كما خدع شاعري المفضل محمود درويش. لقد مُحيت رواية الهنود لتاريخهم. تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض. إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزوم. ويا الله ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم. وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض. هذه واحدة من الابادات الكثيرة التي واجهناها

وسيواجهها الفلسطينيون. قل لدرويش: إن جلادنا المقدس واحد وأنه ‹يواصل حرب الابادة من قبره، للنهاية› لهذا وجدت نفسي في قصيدته أكثر مما وجدتها في خطبة الزعيم سياتل. ترجم ما استطعت من شعر درويش إلى الانكليزية وانظر كيف سيصبح واحدا من أعظم زعمائنا الهنود».

كانت عبارة «جلادنا المقدس واحد» في رسالة الصديق الهندي هي الريح التي جرت بسفينة هذا البحث. ولا بد من الاعتراف بأنه هو الذي دلني على كثير من المراجع المفيدة ونبهني إلى أن أساطير «مملكة اسرائيل» و«الشعب المختار» هي التي منحت المستعمرين الأوروبيين راحة النفس وقرارة العين عند التضحية «المقدسة» بحياة الهندي الأحمر وهي التي طبَعَتهم بأخلاق «الجلاد المقدس». إنني لا أشك في أن عبارته التي صارت عنوانا لهذا البحث هي إحالة مقصودة إلى العقيدة التي وضعت المبررات الأخلاقية اللازمة لأكبر حرب إبادة واستعباد في تاريخنا الإنساني المعروف، ونسجت طقوس «التضحية المقدسة» بالشعوب والأمم، وأرست أيديولوجيا الاستيطان والتوسع في أميركا وفلسطين.

هذا «الجلاد المقدس»، في الأصل، شخصية اسطورية تسكن طقس «التضحية البشرية» وطقس «الجريمة المقدسة» في كثير من أساطيرنا الانسانية. إنه الكائن أو الشعب أو العرق الذي يعتقد بأن آلهته، أو أية قوة غيبية خارقة، ميزته عن بقية الكائنات وفضلته عليها، وأنها بذلك وهبته حياتها وأقطعته بلادها وأورثته مملكة سعادتها. لقد وقع المستعمر الانغلوسكسوني في أساطير «مملكة إسرائيل» على مرسوم تعيينه «جلادا مقدسا» للشعوب والأمم، وعثر فيها على خطة لاهوتية كاملة لابادة سكان أميركا. إن المستعمرين البيوريتانز كما تقول عالمتا الأديان مونيكا سجو Monica Sjöö وبربارة مر Barbara Mor في كتابهما الشاعري «الأم الكونية العظمى» *The Great Cosmic Mother* صاغوا من أساطير مملكة إسرائيل فلسفة الأخلاق اللازمة للاستعمار والقتل والنهب والاستعباد.

على المستوى الأخلاقي لم يستسهل المستعمر البيوريتاني قتل الهندي الأحمر إلا لأنه كان يعتقد بأنه كان يقتل كنعانيا فلسطينيا. كانت صورته عن «الهندي الملعون» تزويرا حقيقيا لصورة «الكنعاني الملعون». وكان هؤلاء البيوريتانز Puritans (المتطهرين) يفكرون في عالم بدون هنود مثلما كان الغزاة الاسرائيليون القدامى يفكرون بعالم بدون كنعانيين. وعندما كان الهنود الأبرياء ضحايا مسالمين وضعفاء مقهورين مسلوبين منهوبين مهانين تقتات كلاب المستعمرين من لحم أطفالهم

كان الأدب الاستعماري يصورهم وحوشا يهددون حضارة العالم وكائنات على شكل السعالي والغيلان الشيطانية تفترس الأطفال وتغتصب الأبكار وتسمم حياة المستعمرين الأبرياء!

كل تصورات الاسرائيليين القدامى ومفاهيمهم عن الحياة والتاريخ والمقدس زرعها المستعمرون «البيوريتانز» في أميركا التي أطلقوا عليها اسم «أرض الميعاد» و«صهيون» و«اسرائيل الجديدة» و«أرض كنعان» وغير ذلك من التسميات التي أطلقت على فلسطين في أسفار ما يسمى بالعهد القديم. ولقد عبر جون كوتون John Cotton وهو الأب الروحي للبيوريتانية الأميركية عن هذه الحتمية القدرية في موعظة له قال فيها قبل أن يتوجه إلى العالم الجديد لتأسيس مستعمرة خليج ماسّاشوستس Massachusetts Bay :

> «إن الله حين خلقنا ونفخ فينا روح الحياة أعطانا أرض الميعاد (أميركا). ومادمنا الآن في أرض جديدة فلابد من بداية جديدة للحياة نعمل فيها من أجل مجد [بني] إسرائيل، هذا الشعب المختار المتميز».

وكان جون كوتون، بهذا الخطاب، قد وضع اللبنات الرسالية لاستعمار «المجاهل» Errand into the Wilderness وإبادة من فيها من بشر. إن أيديولوجيته كما يقول شارلز سانفورد Charles L. Sanford في كتابه الوثائقي عن عقيدة «القدر المتجلي والمسألة الامبريالية» *Manifest Destiny and the Imperialism Question* كانت تستند على نصوص توراتية توحي لأتباعه بأنهم هم أيضا بنو إسرائيل الذين أراد الله أن يستبدلهم بالهنود ويغرسهم مكانهم ويسكنهم في مساكنهم، منها نص من صاموئيل الثاني يقول: «واستبدلت بهم شعبي إسرائيل وغرستهم مكانهم فسكنوا في مساكنهم، وذلك حتى لا يخافوا بعد ذلك ولا يفزعوا كما كانوا من قبل»، ونص آخر من المزامير: « أنت بيدك استأصلت الأمم وغرستهم. حطمت شعوبا ومددتهم»... الخ.

لقد وجد المستوطنون في حكايات «سفر الخروج» نبعا من العبر والإيحاءات التي فسرت لهم كل قصة تأسيس أميركا. فحكاية العبودية في مصر، والنجاة في البحر الأحمر، والتيه في سيناء، ودخول «أرض الميعاد»، وإبادة أهلها صارت خريطة لاهوتية للمجتمع الأميركي الجديد. وقد صاغ جون وينثروب John Winthrop زعيم البعثة البيوريتانية إلى ماساشوستس كل هذه الآيات الإلهية في موعظته التي ألقاها في سفينة الهجرة عام ١٦٣٠ فشرح لمن فيها قصة «العهد» بين «اسرائيل»

و«يهوه» في سيناء، وألهب حماستهم حين جدد هذا العهد معهم واختتم موعظته بما قاله موسى للاسرائيليين: إنكم أنتم أيضا «مقبلون على الأرض التي حلف الرب لآبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب أن يعطيهم إياها». ثم أخبرهم بأن كل مصير أميركا ومن فيها مكتوب في هذا «العهد» الذي أعطاهم فيه ربهم «الأرض التي حلف أن يعطيها لآبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب». وقد كان لهذا العهد فعل السحر في الحياة الاميركية، بل كان لأكثر من قرنين جوهر الخطب السياسية والمواعظ الدينية ووقود الروح التوسعية في كل مستعمرات «الدم الأزرق»، يتردد في الشدة والرخاء والولادة والمرض والموت والزواج، وتُستجلى عبره وآياته مع كل مذبحة جديدة للهنود أو سفينة جديدة للعبيد. وهذا ما نسمع صداه قويا بعد انتصار الثورة الأميركية في خطبة الحاكم جوناتان ترمبل Jonathan Trumble إلى الشعب الأميركي والتي استهلها بتلك الكلمات المتواضعة التي قالها يهوه لاسرائيل في سفر التثنية: «أنت مقدس عند الله. لقد اختارك الله لتكون شعبا فوق كل الشعوب». كان هذا الاستهلال ضروريا -كما يقول ترمبل- لتمجيد الانتصارات السياسية التي حققتها «اسرائيل الله الجديدة God's new Israel» وإشارة نبوية إلى المستقبل الرغيد للولايات المتحدة التي ستكون «الأمة المخلصة» للعالم، وستسود على كل جمهوريات وممالك الأرض.

كان تحويل العالم الجديد إلى «اسرائيل مقدسة» من أعز أحلام المستعمرين الأنغلوسكسون وأماني البيوريتانز وطوباوياتهم الكثيرة. وكانت مخيلة «مسخ الكائنات» لا تشبع من الحنين. كانوا يعتقدون بأن الإنكليز أيضا شعب مختار وأن هناك تطابقا بين قصة خروج العبرانيين من مصر لاستعمار فلسطين وقصة خروج البيوريتانز من بريطانيا لاستعمار أميركا، حتى أن المؤرخ جون فيسك John Fiske يرى أن «كومنولث المستعمرات البيوريتانية» و«فيدرالية التوراة» تأسسا على الموجة الأخلاقية اليهودية، وأنك «حيث ترى تاريخا يصنع في أميركا تجد تاريخا أميركيا يهوديا». وهنا لابد من التذكير بأن أصل خلاف البيوريتانز مع ملوك بريطانيا كان ينصب على تطبيق شريعة موسى. ولطالما اعتقدوا بأنهم ما جاءوا إلى «أرض الميعاد» الأميركية إلا لتأسيس دولة «عبرية Hebraic» تحكمها شريعة موسى على صورة الدولة التي كان يحلم بها الغزاة الاسرائيليون القدامى. أما أولئك «المتوحشون» الذين يعارضون «دولة إرادة الله» وما أصبح يعرف لاحقا بالقدر المتجلي Manifest Destiny فإنهم ليسوا إلا مخلوقات الشيطان التي أحل الله لشعبه المختار أن يبيدها. ومعروف أن كتاب *Hatania* الديني يؤكد الاعتقاد

التاريخي بأن كل إنسان خارج فردوس «الشعب المختار» هو مخلوق شيطاني، وأن كل ما هو مخلوق في هذا العالم مسخر بالطبيعة لهذا الشعب.

هذه الرسالة المقدسة لاستعمار أميركا وفلسطين تجلت أول ما تجلت في تاريخ الاصلاح البروتستانتي الذي أدخل اساطير «الشعب المختار» و«أرض الميعاد» ولاهوت اسرائيل السياسي إلى صلب العقيدة البروتستانتية والوعي الأنغلوسكسوني، ثم تجسدت منذ ١٦٢١ في دعوة بلاط جيمس الأول (أعقل الأغبياء في العالم المسيحي كما يقول عنه الفرنسيون) إلى « عودة بني إسرائيل إلى أرض أجدادهم وتأسيس امبراطوريتهم الموعودة!»، كما تحققت تاريخيا في اكتشاف أميركا الذي تبين لهم أنه يتطابق مع حركة الشمس (من الشرق إلى الغرب) ويؤكد على المعاني المقدسة لاستعمار أميركا وإبادة أهلها انطلاقا من اسطورة «الشعب المختار» و«أرض الميعاد» ولاهوت «مملكة اسرائيل». لهذا كانت أساطير «تاريخ إسرائيل» خير جليس ورفيق ومرشد ونبراس للبيوريتانز؛ يعرفونه ويحلمون باستعادته أكثر من أي يهودي معاصر لهم، وكانت قوانين مستعمرة بليموث (١٦٣٦) وماساشوستس (١٦٤٧) وكونكتكت (١٦٥٠) كلها مستمدة من شريعة موسى بينما كانت نصف مواد قانون نيوهاڤن مقتبسة حرفيا من أسفار التوراة.. إن «عبادة إسرائيل» هي روح رسالة جون كوتون ووليم بوكس William Box وجون وينثروب وغيرهم من أنبياء الاستعمار الأميركي.

في كتابه المثير «اليهود الذين أعجزوا الموت» *The Indestructible Jews* يعتقد ماكس ديمونت Max I. Demont أن «المستعمرين البيوريتانز أرادوا أن يصنعوا تاريخا جديدا للعالم يعكس إرادة إله العبرانيين كما عبر عنها فيما يسمى بالعهد القديم. لقد تلبسوا بتصوراته عن الشعب المختار، وأرادوا تنفيذ وصيته بابادة الأمميين Gentiles (كل من ليس يهوديا) والسيطرة على العالم» وفق الوصية التاريخية التي تقول بأن «أفضل الأمميين مثل أفضل الأفاعي يجب أن يقتل ويسحق رأسه». أما تعلم اللغة العبرية فلم يكن بطرا أو زخرفا أو ترفا للواعظ والكاهن والسياسي في المستعمرات الجديدة بل كان أساس العمارة الثقافية لكل متعلم متنور. لهذا لم يكن الكتاب الأول الذي طبع في أميركا كتابا في ادب الانكليز أو نحوهم أو انجيلهم بل كان كتاب «مزامير داود»، وكان كتاب «النحو العبري» قد طبع في هارڤرد منذ ١٧٣٥ واستوردت له أحرف عبرية خاصة.

كانت العبرية تدرس مع بداية التعليم العالي في كل المستعمرات الأميركية حتى صارت رائجة بين البيوريتانز أكثر من رواجها بين معاصريهم من يهود أوروبا.

وعندما تأسست جامعة هارڤرد في ١٦٣٦ كانت العبرية هي اللغة الرسمية بل كان الحاكم كوتون في خليج ماساشوستش يريدها لغة رسمية لكل مستعمرات «الدم الأزرق» الثلاث عشرة على ساحل الأطلسي لتصبح بعد ذلك لغة العالم المقدسة.

وفي شهادة نادرة كتبها الحاخام لي ليڤنجر Lee Levinger عن تلك الفترة أشار فيها إلى أن البيوريتانز كانوا أكثر تعصبا لليهودية من اليهود وأن غلبة عددهم وقوة نفوذهم في المستعمرات الأولى مكنتهم من رسم الملامح الأساسية لأميركا بريشة توراتية. وفعلا فقبل وصولهم إلى أميركا كانوا في انكلترا يعتبرون أنفسهم عبريين Hebraists، يصلّون بالعبرية، ويحبون أن يسموا أنفسهم بالعبريين. «وباستثناء عبادتهم للمسيح فإنهم -في رأي ديمونت- أكثر يهودية من أيوب». وهناك كثير من الأساطير والروايات التي أظنها صحيحة يتداولونها بينهم عن أن سكان الجزيرة البريطانية هم أحفاد القبائل الاسرائيلية الضائعة. صحيح أنهم لم يكونوا يعرفون اليهود شخصيا لكنهم، في رأي مونيكا سجو وبربارة مر، «كانوا مولعين باليهودية ماضيا وحاضرا ومفتونين باللغة العبرية وشريعة موسى. ولأنهم يؤمنون بأن نهاية العالم قريبة فإنه لابد من جمع شتات اليهود (في فلسطين) من أربع أركان الأرض، فتلك هي إرادة الله والقدر المتجلي وحتمية نهاية التاريخ».

أما قصة اليهودي المظلوم في أميركا، وحكاية تلك الأماكن العامة التي تمنع دخول «اليهود والكلاب» وغير ذلك من الأضاليل المتداولة في أدبيات تفسير قيام اليهود في أميركا من الرماد وخروج ماردهم من القمقم فلا تقدم تفسيرا حقيقيا لا لقوة اليهود ونفوذهم ولا لمرض الاستذئاب lycanthropy الأميركي الرسمي على الفلسطينيين والعرب. إن هجرة اليهود إلى أميركا الشمالية بدأت مع حركة الاستعمار الأولى. وهناك أكثر من سجل لهجرتهم عام ١٦٥٤ إلى نيو أمستردام المعروفة اليوم بنيويورك، وإلى رود آيلاند في ١٦٥٨، كما أن هناك تاريخا موثقا لأسطول تجارتهم بالعبيد ولمستعمراتهم التي أنشأوها من رود آيلاند شمالا حتى جورجيا جنوبا . ولقد كان اليهود طوال قرن الحكم البريطاني للمستعمرات يتمتعون بكامل حريتهم الدينية، فكانت لهم معابدهم ومقابرهم وتنظيماتهم ومدارسهم ومتاجرهم (المفتوحة يوم الأحد) مثلما كانت لهم أضاحيهم المقدسة من العبيد والهنود الحمر أيضا. وفيما كان البيوريتانز لا يطيقون العيش قريبا من الطوائف المسيحية الأخرى كان اليهود بينهم مثل نبات الكودزو Kudzo. ومع ذلك فإن تأثير اليهود المباشر على الحياة الأميركية -بشهادة الحاخام لي ليڤنجر- لايكاد يذكر ، إذ لم يكن لديهم ما يعطونه للمستعمرين البيوريتانز الذين كانوا أكثر يهودية منهم.

דקדוק
לשון עברית

DICKDOOK LESHON GNEBREET.

A

GRAMMAR

OF THE

Hebrew Tongue,

BEING

An ESSAY

To bring the Hebrew Grammar into English,

to Facilitate the

INSTRUCTION

Of all those who are desirous of acquiring a clear Idea of this

Primitive Tongue

by their own Studies;

In order to their more distinct Acquaintance with the SACRED ORACLES of the Old Testament, according to the Original. And

Published more especially for the Use of the STUDENTS of *HARVARD-COLLEGE* at *Cambridge*, in NEW-ENGLAND.

נחבר והוגה בעיון נמרץ על ידי
יהודה מוניש

Composed and accurately Corrected,

By JUDAH MONIS, *M. A.*

BOSTON, N. *England*

Printed by JONAS GREEN, and are to be Sold by the AUTHOR at his House in *Cambridge*. MDCCXXXV.

غلاف كتاب «النحو العبري» الذي طبع في كامبرج عام ١٧٣٥
بعد مضي قرن على اعتبار العبرية لغة رسمية في هارڤرد

THE

VVHOLE

BOOKE OF PSALMES

Faithfully

TRANSLATED into ENGLISH

Metre.

Whereunto is prefixed a discourse declaring not only the lawfullnes, but also the necessity of the heavenly Ordinance of singing Scripture Psalmes in the Churches of God.

Coll. III.

Let the word of God dwell plenteously in you, in all wisdome, teaching and exhorting one another in Psalmes, Himnes, and spirituall Songs, singing to the Lord with grace in your hearts.

Iames v.

If any be afflicted, let him pray, and if any be merry let him sing psalmes.

Imprinted

1640

غلاف «مزامير داوود»
أول كتاب طبع في شمال أميركا عام ١٦٤٠

وفي كتاب سيسيل روث Cicil Roth الوثائقي «مقالات ووجوه في التاريخ اليهودي الانكليزي *Essays and Portraits in Anglo-Jewish History* نجد كثيرا من المعلومات عن دخول البيوريتانز في دين اليهودية أفواجا مما جعلهم نواة الجماعة اليهودية في بريطانيا وأميركا. هذا يعني أن النواة الصلبة ليهود أميركا وبريطانيا كانت أنغلوسكسونية بيوريتانية وليست ساميّة يهودية أو حتى «خَزَرية» كما يعتقد آرثر كوستلر Arthur Koestler ، ويعني أن المفكرة الاستعمارية الجيوسياسية لليهود والأنغلوسكسون على طرفي المحيط الأطلسي (خاصة بالنسبة لاحتلال فلسطين ومن يقاوم هذا الاحتلال) هي مفكرة ايديولوجية واحدة لكل الإدارات والأحزاب في واشنطن ولندن. إنها قد تتخذ أسماء مختلفة مثل «القيم المشتركة» و«الحلف الاستراتيجي» و«الالتزام الأخلاقي» وغير ذلك من التعميات لكنها تستمد أخلاقها من نسغ لاهوتي مشترك: «اسرائيل هي إرادة الله المطلقة المقدسة فوق كل الشعوب» كما آمن بها ووصفها أنبياء الاستعمار الأنغلوسكسوني العبري منذ المذبحة الأولى في «فيدرالية التوراة الأميركية» حتى مذبحة «قانا».

اللاهوت العلماني للإبادة والتوسع وحرب نهاية التاريخ

في أربعينات القرن الماضي، عندما بلغت روح الابادة والاستعباد والتوسع ذروة حماستها في أميركا عند البروتسانتيين المسكونين بهاجس قيامة العالم أطلق جون أوسوليڤان John O'Sullivan عبارته الأسطورية Manifest Destiny «القدر المتجلي» التي أسست للأميركيين دينا استعماريا جديدا ذا قشرة علمانية حشدت تحت لوائه كل من ليس أسود أو ملونا في شمال أميركا. لقد وجد أوسوليفان التعبير العلماني المناسب لكل لاهوت الاستعمار والإبادة المستوحى من لاهوت اسرائيل. إن العبارة مستلهمة أصلا من اعتقاد أوسوليڤان بأن القدر قد كشف عن غطائه وأوضح عن نفسه ونواياه وخططه فأعلن أنه قد اختار «البيض- الأنغلو- سكسون- البروتستانت WASP » ليكونوا «شعبا فوق كل الشعوب»، وفضلهم على غيرهم من الأعراق والأمم والأديان والمعتقدات، وأوكل إليهم أمانة الهيمنة على الأراضي territories الهندية وعلى العالم. إن القدر كما رآه أوسوليڤان يرسم التاريخ خطا مستقيما يتجه نحو عالم يهيمن عليه هذا الشعب المختار الجديد، وهذا ما يتطلب من أميركا أن لا تطفىء حربا إلا بنار حرب أخرى.

أججت عبارة أوسوليڤان في الأميركيين شهوة التوسع المقدس في أراضي الهنود «المنحطين»، واعتبرها كثير من المؤرخين أساس أيديولوجية «الامبريالية» التي حملت العلم الأميركي أول ما حملته إلى جزر الفيليبين في ١٨٩٨. أما داخل القارة فكانت حرب إبادة الهنود وتهجيرهم، والحدود التي يجب أن تتسع بلا نهاية تحت أقدام «الشعب المختار الجديد» سياسة مقدسة وقدرية لدى كل القادة والأحزاب. حتى في أوج مشاعر الثورة على الانكليز وروح التنوير كان اللاهوت يلهب حماسة الثوار بتلك النار المقدسة التي صهرت كل ملابسات الثورة وأحداثها وأبطالها في مسيرة الشعب المختار إلى أرض الميعاد: إن إسرائيل الجديدة (أميركا) بدأت تقتلع نفسها من مصر (بريطانيا)، وما هذه الثورة إلا نصر جديد للشعب المختار وتجسيد مبارك جديد لقصة «خروج» بني إسرائيل من مصر لتأسيس مملكتهم. كان هذا التأويل المقدس رائجا بين معظم رجال الثورة، بمن فيهم أشد رجالها نقدا للاهوت إسرائيل وخطره على إنسانية المؤمنين به مثل توماس پاين Thomas Paine وجون آدامس John Adams وجورج واشنطن George Washington بينما ظل اللاهوت الاستعماري يستلهم هذا التأويل، وظلت لغته العلمانية تربط مسألة الحرية والرفاه بضرورة توسع شعب الله الجديد في أرض كنعان الجديدة والقضاء على أهلها المتوحشين وتأسيس دولة مقدسة صالحة تنعم بالرفاه والبحبوحة والنعيم وكل ذهب

الهنود وخيرات أرضهم الطيبة تماما كما أراد الإسرائيليون القدامى غزو أرض كنعان القديمة والقضاء على أهلها الملعونين وتأسيس مملكة مقدسة تنعم بالرفاه والبحبوحة والنعيم وكل ذهب الكنعانيين وخيرات أرضهم الطيبة.

ومن قبل أن يبدأ فردريك تيرنر Frederick Jackson Turner بتسمية هذه البربرية المكابية «تمدينا للمجاهل المتوحشة» كانت كل عمليات التوسع والابادة تستلهم معناها المقدس من مسيرة موسى إلى أرض الميعاد ومن الدور العنصري الخلاصي الذي نسبه الاسرائيليون لأنفسهم. فالاختيار (أو التفوق) باعتباره آية من آيات القدر، والتاريخ باعتبارة استجابة ومرآة لحتمية هذا الاختيار؛ كلاهما كان للمستعمرين الانكليز من أهم العقائد التي تجلى من خلالها قدر أميركا ومصير أهلها ثم صارت هذه العقائد أساسا من أسس الأيديولوجية الجمهورية بعد الثورة.

إن أميركا «أرض الميعاد» و«البلاد المقدسة» و«صهيون» و«أرض كنعان» التي اختارتها العناية الالهية لغاية سامية مقدسة وجدت هنا مقابلها «العلمي» في اصطلاح «التفوق العرقي» ومقابلها الثوري السياسي في اصطلاح «أمة الحرية» التي ستنهض بصرح «الحرية» في العالم لخير الانسانية كلها. أما على المستوى الأيديولوجي فقد ظلت عقيدة «**شعب مختار في مواجهة كنعانيين**» تشكل المعنى المقدس لمختلف الألفاظ العلمانية التي اتخذتها على مر العصور. كانت هذه العقيدة تسلخ جلدها من عصر إلى عصر، لكنها أبدا لم تغير طبيعة سمومها المقدسة، لا حين صارت «**حضارة** في مواجهة **وحشية**» ولا حين صارت «**عرقا أبيض** في مواجهة **عرق أسود أو عرق ملون**» كما يرى شارلز سانفورد. أما مر وسجو فتقولان: إن أميركا لم تتخل عن توراتها الاستعمارية لحظة واحدة، فبرغم الهزيمة السياسية التي لحقت بالپيوريتانز في أول القرن التاسع عشر ماتزال أيديولوجيتهم تنسج روح الأخلاق الأميركية التي شقت طريقها إلى المؤسسة السياسية فأوجدت ثوابتها. وأول هذه الثوابت القناعة العميقة بحتمية تجميع يهود العالم في فلسطين استعدادا لنهاية التاريخ، وبأن سيطرة «الشعب المختار» على العالم هي «إرادة الله».

إن كثيرا من المؤرخين وعلماء الاجتماع يعتقدون بأن أميركا اليوم (في تقرير نشرته الواشنطن بوست- ٢٦ نوفمبر الماضي) أكثر أصولية وتزمتا مما كانت عليه أيام المستوطنات الأولى وأنها البلد الأكثر تطرفا دينيا بين كل بلدان العالم الغربي كما يقول رودني ستارك Rodny Stark استاذ علم الاجتماع والأديان المقارنة في جامعة واشنطن. ويقول ستارك وزميله فينك Roger Fink في كتابهما «كيف صارت أميركا كنسية» *The Churching of America* أيضا:

إن نسبة الملتزمين بالكنيسة ارتفعت من ١٧ بالمئة في عام ١٧٧٦ إلى ٦٥ بالمئة في عام ١٩٩٥، وأن هذه النسبة ماتزال في ارتفاع سينتهي بأميركا حتما إلى أن تصبح دولة أكثر التزاما بالدين من المستعمرات الأميركية الأولى!

هناك من اتهم ايديولوجية «القدر المتجلي» بأنها ضلال وهرطقة. وهناك من رأى فيها التعبير العلماني المناسب عن روح التوسع التي غيرت وجه أميركا من مفازات وقفار وحشية خاوية من البشر إلى جنات وأنهار وعالم متحضر، وانتقلت بها من مستعمرات مشتتة إلى قوة تحكم العالم. في هذه الأيديولوجية العلمانية نكتشف ما يسميه روجيه غارودي Roger Garaudy بأخلاق السوق أو السوقية الأميركية التي تستظل دائما بالادعاءات الرسالية. إن هذا الاستعمار المكابي Maccabi مايزال مولد السياسة الأنغلوسكسونسية وما يزال أهم أوراق لعبتها الرأسمالية. فحين تنجح أي قوة انتهازية في جعل مصلحة «تكساكو» أو «جنرال موتورز» أو «AT&T» مثلا مصلحة أميركا؛ سرعان ما تبدأ عملية الاقناع اللاهوتي على المستوى الشعبي بوضع ملابسات الأحداث في إطار الكتاب المقدس، وسرعان ما تستظل تلك المصلحة النفعية بجملة توراتية أو واقعة من وقائع التاريخ العبراني. تلك العصا السحرية لآدم سميث تعمل دائما على تحويل النفعية الخاصة إلى خير عام مقدس يستأهل حربا نفعية مقدسة لابادة مخلوقات الشيطان أعداء شعب الله الذين هددوا مصلحة «تكساكو» أو «جنرال موتورز» أو «AT&T». بهذا المنطق هبت «عاصفة الصحراء»، وبه تربعت اسرائيل على عرش النفعية المقدسة في «مركز التجارة العالمية World Trade Center» وصارت من أنجح استثمارات السماء. إنها «إرادة الله» التي تمطر على الأنغلوسكسون بذهب الأپاشي العرب.

لقد شُحنت أيديولوجية «القدر المتجلي» بكل مشاعر المستعمرين الأوائل ونبضهم المسيائي. إن دوران الشمس مع حركة التوسع البروتستانتي من الشرق إلى الغرب في اعتقاد ناتنيِل إيمس Nathaniel Ames أحد أنبياء اللاهوت الاستعماري الأنغلوسكسوني ليس مصادفة بل كان تعبيرا عن «إرادة الله» وقدره، وحقيقة ثابتة من حقائق مملكة الطبيعة وحركة التاريخ والسعادة والرفاه الانساني؛ حقيقة رسمت منذ الأزل صورة المستقبل للشعب الانغلوسكسوني المختار ذي البشرة البيضاء والعيون السماوية ثم تجاوزت هذه الحدود لتمنح بركة الاختيار الالهي لكل الأميركيين المتحدرين من أصل أوروبي. من هذه الحقيقة الخالدة لاقتران دوران الشمس بزحف البروتستانتية غربا (عبر الأطلسي إلى المستعمرات الأولى، ومنها

إلى شاطىء المحيط الهادي) استمدت جملة الفيلسوف جورج بيركلي George Berkeley «مسيرة الامبراطورية ماضية غربا» Westward the course of empire takes its place معناها وظلالها النفعية المقدسة، ومن هذه الحقيقة أيضا تحس بهذا النبض المقدس للعلمانية الأميركية يخفق في قلب كل وثائق الفترة الاستعمارية الأولى.

صحيح أن الموجة المقدسة كانت عارمة في الاستعمار الاسباني والبرتغالي لأميركا، لكن الأنغلوسكسون البيوريتانز تفردوا بعقيدة «الاختيار» و«الهم الإسرائيلي» و«المطابقة مع تاريخ العبرانيين» و«إضفاء صفة القداسة على الأرض الأميركية» التي جعلوها (بعد أن ارتدت الحملات الصليبية على أعقابها من الأراضي المقدسة) أرضا مقدسة بديلة يتجمع فيها «شعب الله» ليعيد صياغة العالم استعدادا لنهاية التاريخ أو قيامة العالم كما هندستها أساطير مملكة إسرائيل.

هذا الطموح الدائم إلى إعادة صياغة العالم مايزال إلى الآن جوهر مشاريع «النظام العالمي الجديد» منذ أن عبر عنها شعار «الختم الأميركي»: ليبارك الله مسعانا من أجل نظام جديد للعصور *Annuit coeptis; Novus ordo seclorum* إلى أن قال پات روبرتسون Pat Robertson (نوستراداموس الحزب الجمهوري، حزب نيكسون وفورد وريغن وبوش) مفسرا دعوة الرئيس بوش إلى نظام عالمي جديد في كتاب له بذلك العنوان:

> «إن الكتاب المقدس هو الذي يعد بتلك الحكومة العالمية التي ستقضى على كل أعداء إسرائيل».

كانت ڤرجينيا والمستعمرات في كل «نيو إنغلاند» تعتبر أرضا باركها الله وأذن فيها بالحج وحرمها بذلك على الكفار وأمر بتطهيرها منهم. ومن هذه الروح كتب توماس هوكر Thomas Hooker عندما أدى فريضة الحج إلى ڤرجينيا عام ١٦٣١بعد عشر سنوات من دعوة بلاط جيمس الأول إلى «إعادة بني إسرائيل إلى أرض أجدادهم وتأسيس امبراطوريتهم الموعودة» فيما يعرف بوثيقة هنري فينش Henry Finch : «إن الأتراك (المسلمين) والكفرة سيجدون نار جهنم أرحم بهم من انكلترا». وكان لقب الحجاج Pilgrims يطلق على المستعمرين البيوريتانز الذين أسسوا مستعمرة پليموث Plymouth في نهاية سعيدة لتلك القصة الأسطورية التي يروونها عما تعرضت سفينتهم مايفلور Mayflower من أهوال في سبيل عقيدتهم البيوريتانية. لقد حقنهم «لاهوت مملكة إسرائيل» بكل جنون عبادة الذات ودموية نهاية التاريخ. بذلك قالوا إن «الله رجل انكليزي *God is an Englishman*» كما

في رواية دلدرفيلد R. F. Delderfield، وقالوا -متابعة لونثروب-بأن الله اختارهم لتطهير أرض «كنعان الجديدة» من أهلها وفاء «بعهد» جديد وثوابا على «خروج» جديد إلى أرض رسمت السماء معالمها وملامحها وموقعها ومصير أهلها.

بذلك كانت مسيرة التمدين الدموية في «المجاهل المتوحشة» آية من آيات القدر والعناية الالهية، وكان انتصارهم على «المتوحشين الكنعانيين» وفاء بالعهد الجديد الذي قطعوه مع ربهم وصاروا بموجبه شعبا مختارا يدخل الأرض المقدسة. هذه العناية الإلهية تجلت في كل حروب الإبادة والتوسع والاستعباد داخل القارة الأميركية وخارجها، ولم تفارق الشعب الأنغلوسكسوني المختار في طريقه إلى نهاية التاريخ لحظة واحدة.

كانت كل مذبحة جديدة للهنود وكل سفينة جديدة للعبيد آية إلهية على أن السماء هي التي اختارتهم واختارت «انكلترا الجديدة» لتدبير شؤون العالم وتحضيره للقيامة الموعودة. في عام ١٦٣٠ عندما أصيبت قبيلة هندية بالجدري قال جون ونثروب أحد أعظم أنبياء البيوريتانية :« هذه نعمة إلهية ومعجزة صنعها الله ليعيننا على إبادة الهنود». وقد ردد الرئيس بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin مثل هذه العواطف الانسانية النبيلة في مناسبة مماثلة فقال: «إنها تدابير معينة اتخذتها العناية الإلهية لاستئصال هؤلاء الوحوش».

ومع ما يسمى بالصحوة الكبرى Great Awakening في منتصف القرن الثامن عشر تجلت العناية الإلهية في حروب التوسع والإبادة التي صارت من علامات نهاية التاريخ وتأكيدا على أن السماء هي التي أوكلت للشعب المختار أمانة إعداد الإنسانية لقيامتها القريبة. بذلك جندت أميركا في حرب إفناء الهنود واستعباد السود كل التصورات القيامية للمستعمرين الأوائل، بينما كان جوناثان إدواردس Jonathan Edwards قديس «الصحوة الكبرى» ينادي بتنشيط الرسالة الاستعمارية وتوسيع آفاقها، ويبشر برسالة أميركية لتغيير نظام العالم وإعداده لحرب الخلاص الكبرى. كان إدواردس يبشر بعالم ستشرق عليه الشمس من الغرب (الأميركي)، ومعها ستشرق أنوار الذرية البيوريتانية المختارة التي أوسع إدواردس معناها لتضم إلى فردوسها كل العرق الأبيض في أميركا. ومع ذلك فلم يكن التوسع غاية في حد ذاته كما يقول أندرس ستيفنسون Anders Stephenson:

> «فمن خلال تأسيس إسرائيل الجديدة (الولايات المتحدة) سيتمتع هذا الشعب المختار بحق مطلق وشامل ومقدس في هذه الأرض، وسيبدأ بإعادة صياغة العالم وتهيئته لحرب نهاية التاريخ. بذلك

يتحقق العهد بين يهوه وشعبه[...] إن كل مصير العالم معلق على هذا العهد! وقد جاء البيوريتانز للتأكيد على هذا البعد في قضية اختيار الله لهم وعهده معهم [...] إن البيوريتانز يتحملون مسؤولية كبرى في خروجهم إلى اسرائيل الجديدة. فبهذا الخروج صارت رسالتهم على الأرض صورة حرفية لرسالة بني إسرائيل وصار العهد مع يهوه يشملهم أيضا ».

وبهذا الخروج أيضا تحتم على « الشعب المختار » الجديد تهيئة العالم لنهاية تاريخه التي لابد لها من ثلاثة ثوابت « أخلاقية » تشكل أساس الوعي القيامي الأميركي وروح « القيم المشتركة! » بين الولايات المتحدة وما يسمى اليوم باسرائيل:

* تجميع اليهود في فلسطين من كل أرجاء الأرض استعدادا لعودة المسيح ونزول أورشليم من السماء.

* تدمير بابل « بقصفها من السماء، ومحوها من على وجه الأرض لكي لا يبقى فيها أثر لبشر، ويصعد دخان حرائقها إلى أبد الآبدين »كما تقول « الرؤيا ».

* « عصر دم » أبناء المدنيات الملعونة ما بين الفرات والنيل في « معصرة غضب الرب ». إن من القوانين الدينية الخاصة بالأمميين (غير اليهود) كما يروي اسرائيل شاهاك قانونا خاصا بالكنعانيين والشعوب غير اليهودية التي عاشت في فلسطين وجوارها قبل يشوع. ويقضي هذا القانون بابادة كل هذه الشعوب عن بكرة أبيها، ولكن « خطوة خطوة » كما جاء في « الخروج »:

« إن ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم [...] لا أطردهم من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية. قليلا قليلا أطردهم من أمامك وإلى أن تثمر وتملك الأرض وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين ،من البرية إلى النهر ».

هذا الوعي النوسترادامي الذي تفقد فيه أشياء العالم اتساقها وهويتها يتجسد هناك بكل اهترائه ولامعقوليته في الخطاب القيامي لپات روبرتسون (المستشار الروحي للرئيس السابق جورج بوش أيام « عاصفة الصحراء » والحملة الرئاسية الثانية، وأحد مرشحي الحزب الجمهوري للرئاسة في عام ١٩٨٨). إنك تعثر على هذا الخطاب القيامي فظا، عاريا من كل ما يحجب عدميته ودمويته في كل كتب روبرتسون ومواعظه وجامعته ومحطاته التلفزيونية (إحداها في المنطقة

التي تحتلها إسرائيل من جنوب لبنان).

في كل أدبياته وكتبه يؤكد روبرتسون على أن عودة المسيح ومملكته في نهاية التاريخ القريبة جدا مشروطة بتلك الثوابت الثلاثة: إبادة الأمم الملعونة بين الفرات والنيل، وتجميع اليهود في فلسطين لتحقيق حلم صهيون، وأخيرا لابد من تدمير بابل التي يصفها أكثر من مرة -على لسان كتابه «المقدس»!- بأنها «أم العاهرات... الخ!»!

The mother of harlots and abominations of the earth

ولتجنيد هذا اللاهوت الطاهر في حرب «نهاية التاريخ» يؤكد روبرتسون في كتابيه *The New Millennium* و *The New World Order* أن «عاصفة الصحراء» كانت المعركة التي حسمت حرب الأربعة عشر قرنا بين الشرق والغرب، وبين الاسلام ومنافستية المسيحية واليهودية! ثم يستشهد بما كتبته مجلة *U.S. News & World Report* في عدد ٢٧ آب/أغسطس ١٩٩٠ لكي يؤكد على أن الأوساط غير اللاهوتية لا تختلف في موقفها وتفسيرها عن موقفه وتفسيره:

> «إن النزاع المخيم في الخليج الفارسي بكل بساطة ليس مجرد معركة من أجل الكويت أو لبسط السيطرة على نفط الشرق الأوسط. إنه الفصل الأخير في حرب قديمة تدور رحاها منذ أربعة عشر قرنا بين الشرق والغرب، بين الاسلام ومنافسيه التوحيديين: المسيحية واليهودية».
>
> "...the looming conflict in the Persian Gulf is not simply a battle for Kuwait, or even for mastery of Middle East's oil. It is the latest chapter in a 14-century-old battle between East and West, between Islam and its monotheistic rivals, Christianity and Judaism."

وكالعادة، يرسم روبرتسون أفق هذه الحرب بأساطير مملكة إسرائيل عن بداية العالم ونهايته، ويلونها بالأحقاد والشتائم التي ترددها هذه الأساطير عن بابل ومدنيات عالمنا العربي القديم ليجعلها أساسا إيمانيا صالحا لرسم استراتيجية الولايات المتحدة في «حرب نهاية العالم». كذلك يستعيد الحكاية البدوية العنصرية عن «الست ساره وضرتها الجارية هاجر» ليوحي بأن استعباد العرب أو إبادة من يقاوم هذا الاستعباد من «إرادة الله» مثلما كانت حرب إبادة الهنود واستعباد السود من «إرادة الله». وبعد سلسلة من المشاهد الساتركونية المستمدة من الخرافة التي

أرادت تفسير تعدد لغات العالم وأممه وشعوبه بأن يهوه الحقود هو الذي بلبل الألسنة في بابل وأوقع الشقاق بين بني الإنسان لايبقي روبرتسون أمام القارىء فسحة للتردد والشك في أن انبثاق النظام العالمي الجديد من رماد «بابل» هو آية من آيات نهاية التاريخ وأن حرب الإبادة الوحشية التي انبثقت من ذلك الرماد لا تختلف أخلاقا ولاهوتا وسياسة عن حرب إبادة الهنود واستعباد السود. (في هذا السياق يقول روبرتسون إن فكرة النظام العالمي الجديد ظهرت في صورتها الحديثة بفضل مجلس العلاقات الخارجية Council on Foreign Relations الذي كان له منذ منذ ١٩٢٠ دور فعال في رسم السياسة الخارجية الأميركية. وكانت أسرة روكيفلر اليهودية هي التي أسست هذا المجلس ومولته بهدف تأسيس حكومة عالمية تمسك الولايات المتحدة بخيوطها وتتولى تجميع يهود العالم في فلسطين استعدادا لحرب نهاية العالم).

ويمضي روبرتسون في الكشف عن الدروس والعبر في «رماد بابل» الذي قام منه «النظام العالمي الجديد» : فيقول:

> «من موقع برج بابل حيث تبلبلت الألسنة وتفرقت كل أمم الأرض هاهي تعود من جديد وتدخل في حلف عسكري واحد. وهاهي أمم الأرض كما تقول النبوات العبرانية تشكل نظاما عالميا جديدا للدفاع عن إسرائيل والانتقام من «بابل» بقصفها من السماء لأنها هي التي عذبت شعب الله وأغرقته بالدموع والأحزان».

إن لاهوت «مملكة إسرائيل» وأساطيرها يغص بمثل هذه الآيات التي يمثلها هذا النص القيامي :

> «ورفع الملاك حجرا أعظم من حجر الطاحون ورماه في البحر قائلا: هكذا ستقصف بابل العظيمة وستمحى من وجه الأرض فلن تَسمع فيها صوتا لقيثار ولا لحنا من مزمار، ولن يبقى فيها صانع يصنع، ولا طاحون يدور ولا سراج يضيىء... ها دخانها يصعد إلى أبد الآبدين»

ومع هذه النصوص السادية يضيىء روبرتسون الأبعاد الروحية للصهيونية ويوحي بأن أهدافها هي أهداف السماء. لهذا يمجد سموها الأخلاقي ومعناها الانساني «لأنها كالبيوريتانية استجابت للعهد الذي أعطى فيه يهوه لبني إسرائيل الأرض المقدسة من نهر النيل جنوبا حتى أعالي الفرات». ووفاء بهذا العهد يعتبر روبرتسون اجتياح اسرائيل للقدس في عام ١٩٦٧ «أعظم حدث روحي في تاريخ

الكتاب المقدس». ولهذا قضت إرادة الله أن تبقى القدس عاصمة إسرائيل إلى الأبد مهما كانت التضحيات والعواقب التي يذكر روبرتسون من بينها إفناء العالم كله بالقوة النووية الإسرائيلية والأميركية. ويروي روبرتسون أن مسؤولا رفيع المستوى في وزارة الدفاع الأميركية أكد له أن الإسرائيليين لن ينسحبوا من القدس الشرقية قبل أن يفرغوا ترسانتهم من كل أسلحتها التقليدية والنووية. وأن على كل أمة تحاول تقسيم القدس أن تتحمل عاقبة زج العالم في مذبحة نووية، لأن أميركا أيضا لن تتخلى عن إسرائيل ولن تسمح بتقسيم القدس إلا إذا تخلت عن إيمانها عن عودة المسيح والانتصار المحتم على أعداء إسرائيل في حرب نهاية العالم. هذا الوعي القيامي للقدس وفلسطين لا يقتصر على اللاهوت السياسي للحزبين الجمهوري والديمقراطي وحدهما بل إنك تعثر عليه في كثير من أعمال أدباء أميركا ورحالتها بدءا من توماس شيپرد Thomas Shepard وروجر وليامس Roger Williams وكوتون ماذر Cotton Mather في بداية الاستعمار الانغلوسكسوني لأميركا، مرورا بهنري داڤيد ثرو Henry David Thoreau وهرمان ملڤيل Herman Melville ومارك توين Mark Twain وهنري ڤن ديك Henry Van Dyke وفيليب روث Philip Roth حتى مسك الختام سول بلو Saul Bellow.

ومعروف أن لروبرتسون الذي يخيم فوق الحزب الجمهوري مثل ضباب



ميليشيا كاهانه في معسكر تدريبها في الولايات المتحدة. نسبة كبيرة من المستوطنين في الأراضي المحتلة هم أميركيون أو تلقوا تدريبهم العسكري والإيديولوجي في معسكرات خاصة في الولايات المتحدة.

لانهائي من السموم والغشاوات وصية مشابهة لوصية كاهن الرئيس كلينتون تؤكد على أن عبادة إسرائيل هي من الثوابت الأساسية للدولة الأميركية. وكان روبرتسون في إطار التعبئة لتدمير بابل وتحقيق النبوءات القيامية لنهاية التاريخ قد قال هذه الوصية:

«إذا تخلت أمتنا عن إسرائيل فإن غضب الله سيحل عليها:

If our nation turns against Israel, it will incur the wrath of God

إننا لا نستطيع إلا أن ندعم إسرائيل، ذلك لأن الأنبياء في كل «العهد القديم» حذروا من أن الله سيدين كل من يقف في وجه إسرائيل».

إن العقل السياسي الأميركي لا يكاد يفكر في اسرائيل حتى يعوم مثل بعوضة ميتة في بحر من الخرافة والدم. وإنك قد تجد في أميركا بعض الأنغلوسكسون الذين يكرهون اليهود ويعادون السامية لكن «إسرائيل» التي تتربع على عرش البانثيون الأنغلوسكسوني تبقى معبودهم الذي ليس له شريك في الملك ولا ينافسه إله آخر إلا الدولار.

* * *

كانت النهاية القيامية للتاريخ موضوع جلسة خاصة للكونغرس في أول نوفمبر الماضي بعد أن التهبت حماستها بين الأميركيين مع اقتراب عام ٢٠٠٠ وتزايد عدد المؤمنين بقرب عودة المسيح وأخذت تشحن غرائزهم بنار «حرب نهاية العالم Armageddon ». إنك لكي تكون بيوريتانيا تقيا ينبغي عليك التسليم بأن على حوادث العالم قبل أن تصبح تاريخا أن تستأذن «إسرائيل». وعليك قبل ذلك أن تؤمن بالنهاية الدموية للعالم كما رسمها ذلك النص الهستيري المعروف باسم «رؤيا يوحنا».

في كتيب طريف ونادر عنوانه القيامة *Apocalypse* يشك دي. إش. لورنس D. H. Lawrence في نسبة هذه «الرؤيا» ليوحنا ويعتبرها نصا انتقاميا دمويا من أعظم كتابات الكراهية في التاريخ الإنساني بل يقول إنها نص ينقض كل تعاليم السيد المسيح وأخلاقه. هذا النص الذي يضمه لورنس إلى لاهوت إسرائيل والذي يشكل أساس مواعظ الآحاد في الولايات المتحدة (وبريطانيا طبعا) ويعتبر هاجسا يوميا لكل بروتستانتي مؤمن إنما يرسم الصورة الأميركية المرتجاة لحرب نهاية التاريخ ومابعد نهاية التاريخ في مشاهد هيتشكوكية أخاذة يخرج في أحدها من فم «الرب» سيف ماض يضرب به الأمم ويرعاهم بعصا من حديد ويدوس معصرة

الانسانية ليصنع منها خمرة غضبه وسخطه، بينما يصف مشهد سادي آخر كيف ستعصر دماء البشر وكيف سينفر الدم من المعصرة إلى لجم الخيل مسافة ألف وستمائة غلوة. (حوالي ٢٠٠ ميل أو ٣٢٠ كلم، أبعد مما بين قانا وتل أبيب). كل تلك السلسلة القيامية لمشاهد القتل والتعذيب والابادات العجائبية للشعوب والأمم هي من أجل أن تنزل اورشليم من السماء فوق حطام الأرض وأهل الأرض وفيها أسباط إسرائيل. وبذلك ينسجم الكون كله مع «اختيار الله» لشعبه.

«أورشليم المقدسة نازلة من السماء... ولها إثنا عشر بابا، وعلى الأبواب إثنا عشر ملاكا، وأسماء مكتوبة هي أسماء أسباط بني إسرائيل الاثني عشر» ومع كل سبط إثنا عشر ألفا من ذريته المباركة التي ختم الله على جباهها ليميزها ويلتقطها من بين هذه الكائنات الملعونة كما يلتقط اللؤلؤ.

إن هزيمة كل شعوب العالم باستثناء الشعب المختار في هذه الحرب التي اشتركت فيها أعظم مخيلات الكراهية والجريمة والبارانويا شحنت حركة «الاصلاح» البروتستانتية بكل الأخلاق اللازمة لكي تخوض حرب قيامة العالم Armageddon انطلاقا من القارة الأميركية. :ذلك فإنها جعلت البيوريتانز يعتقدون بأن حركتهم من علامات «نهاية الزمان» وأن الله لم يرفع لهم النقاب عن «العالم الجديد» إلا لأنهم شعبه المختار وسيفه الذي «سيضرب به الأمم ويرعاهم بعصا من حديد». كانت أوروبا في تلك الفترة قد احتكرت لنفسها مفهوم العالم المسيحي Respublica Christiana ، وجعلت الهوة بين ما هو مسيحي وما ليس بمسيحي هوة جغرافية كان من أول نتائجها أن البروتستانتية الانغلوسكسونية طردت مسيحيي الشرق العرب من فردوس العالم المسيحي وربطت مصيرهم بمصير المسلمين وانتهت إلى العمل مع غزاة فلسطين على تصفية المسيحيين جسديا في مهد المسيح بأخلاق لا تقل كراهية عن أخلاق إبادة هنود أميركا.

كانت شمولية تعاليم المسيح، وتبشيره بالمحبة وبحضور الله الدائم فينا وبيننا وبأن الخلاص يجب أن يعم الانسانية ويقوم على أساس الأخلاق لا العنصر والعشيرة، وحربه على ظاهرية الشريعة ومحرماتها صفعة لكل أساطير مملكة اسرائيل ومكابيتها Maccabi وعنصريتها. ان جوهر الايمان المسيحي يقوم على مبدأ «أحبب عدوك» الذي كان ثورة على تقليد العنف والكراهية اليهودي المكابي Maccabi، مثلما كانت حياة المسيح وأخلاقه وتعاليمه كما يعتقد يونغ C. G. Jung في كتاب «جوابا على أيوب» *Answer to Job* ثورة إنسانية على وحشية إله إسرائيل .

ولطالما كان كل تاريخ المسيحية الشرقية العربية تجسيدا لهذه الإنسانية النبيلة التي غابت عن التقليد البروتستانتي الأنغلوسكسوني يوم نبش تقليد العنف والكراهية المكابي وأحله محل جوهر الإيمان المسيحي. إن المركزية العنصرية للبروتستانتية الأنغلوسكسونية أدت إلى إغلاق كل تعاليم المسيح في المركزية العنصرية للشعب المختار وفي المسيائية اليهودية وحولت مملكة المسيح إلى شركة مصادرات وقرصنة عقارية . أما مبدأ «أحبب عدوك» فقد تجلى بأعظم تساميه وجوهره المسيحي المتعالي في استقبال المسيحيين العرب للفاتحين المسلمين وفي فتح خزائن وكنوز تراث المدنيات القديمة لاحيائه وتطويره. وإنه لابد لكل من يتحدث عن رحمة الفاتحين العرب وتسامح المسلمين أن يعترف بأن أعظم مظاهر التسامح كانت وماتزال من صنع المسيح والإيمان المسيحي العربي. لكننا ياللعار بعناهم ورميناهم بلا حول ولاطول للذئاب الذين كانوا يتربصون بهم منذ ظهور السيد المسيح. وعلينا أن نخجل مما فعلناه بأنفسنا وأنفسهم.

وللأسف فان انحسار البعد الطوباوي من الكاثوليكية الرومانية إلى داخل الأديرة هو الذي أدى إلى تحكم تلك الكنيسة بالمصير الأرضي، وهو الأمر الذي أرادت البروتستانتية أن تتغلب على ثنائيته بالتوحيد بين ما هو ديني وزمني. بذلك فتحت الباب لكل يوتوبيا ممكنة، فراح البيوريتانز ينبشون مفهوم «الشعب المختار»، ويتبنون فكرة «اسرائيل» ولاهوتها ومكابيتها وعنفها وأخلاق كراهيتها. بذلك دخلت عقيدة «نهاية التاريخ» بمعناها القيامي الأسطوري في الحياة اليومية الأميركية وصار لزاما على البيوريتاني تحويل أرض كنعان (العالم الجديد) إلى «اسرائيل جديدة» وإبادة أهلها الكنعانيين ثم العمل على تجميع اليهود في فلسطين من مختلف أنحاء الأرض والاستعداد لحرب نهاية العالم وكل ما يلزم ذلك من إبادات وجرائم مقدسة.

لقد أصبحت «اسرائيل الجديدة» للأنغلوسكسون نهاية كل نهاية للتاريخ. فيها سيصنعون التاريخ المقدس الذي رسمته العناية الالهية ، ومنها سيكشفون المصير المقدس لكل هذا العالم. إن إسرائيل هي ربهم الذي يعبدونه و هي صلواتهم التي يرددها البسطاء والرؤساء والوزراء والجنرالات وصانعو القرار السياسي في قداس الآحاد وكلما فتحوا كتاب الصلاة *The Book of Prayer*:

«ألم تري أن الذي يحميك ياإسرائيل لا تأخذه سنة ولا نوم
إن الرب هو الذي يرعاك،
وإنه هو الذي يذود عن حياضك بيمناه»

Behold, he that keepeth Israel: shall neither slumber not sleep.
The Lord himself is thy keeper: the Lord is thy defence
upon thy right hand;

«الرب هو الذي بنى إورشليم، ولملم شمل بني اسرائيل
إنه هو الذي يغسل أحزان قلوبهم،
ويعطيهم البلسم الذي يشفيهم من السقام»

The Lord doth build up Jerusalem: and gather together
the out-casts of Israel
He health those that are broken in heart: and givth medicine to heal their sickness.

«بين اليهود عُرف الله. وتمجد اسمه في إسرائيل
معبده في سالم، ومسكنه في صهيون».

In Jewry is God known: his Name is great in Israel
At Salem is his tabernacle: and his dwelling in Sion.

«حين خرج بنو إسرائيل من مصر،
وخرج بيت يعقوب من بين الغرباء
يهودا كانت ملجأهم، وإسرائيل كانت ملكهم
بذلك شهد البحر وفاض، وبذلك شهد نهر الأردن وانحسر
أما الجبال فرقصت كالأغنام، وأما الآكام فطارت فرحا كالحملان»

When Israel came out of Egypt: and the house of
Jacob from among the strange people,
Judah was his sanctuary: and Israel his dominion.
The sea saw that, and fled: Jordan was driven back.
The mountains skipped like rams: and the little hills like young sheep.

إن قديسي الأنغلوسكسونية في أميركا (وبريطانيا طبعا) يمجدون الله بهذه الصلوات ويعملون ليل نهار منذ بداية حركة الاصلاح لتحضير أعداء «الشعب المختار» لنهايتهم الدموية التي لن تنزل أورشليم القدس من السماء بدونها.

لهذا كان استعمار أميركا وإبادة أهلها أول طلقة في «حرب نهاية التاريخ»، وكان هنود أميركا أول الضحايا، لا آخرهم. لقد لاقى هؤلاء الأشقياء الهنود مصيرهم الدامي بالغلط ونيابة عنا ــ نحن المقصودين بالذبح على الحقيقة. إنه موتنا

الذي فدانا به هنود أميركا وأبعدوا به سكين الجلاد الأنغلوسكسوني المقدس عن رقابنا أكثر من خمسمائة عام.. وقد جاء الأجل بأيديهم وأيدي دُماهم، فليلمس كل «حر» منا رقبته، وليلبس كل «حيّ» منا كفنه أو قنبلة انتحاره. انهم لن يتركوا منا إلا عبدا أو حاكما وغدا، ولن يبقوا من أرضنا إلا المقابر وأقفاص الحيوانات. سنوات معدودة، لعلها أقصر من سنوات الأباشي والشيروكي، ولن يبقى من هذه البقرة إلا العظام.

كانت إبادة هنود أميركا أولى الإبادات على الطريق إلى هيروشيما وناغازاكي وفيتنام وبغداد وقانا فالمدن العربية المقبلة واحدة بعد الأخرى صعودا إلى أورشليم السماوية، وكان استعمار أميركا أول الطريق إلى استعمار أرضنا وثروتنا وحكامنا وجامعة دولنا وكل مقدساتنا. إن قدر أميركا هو ابتلاع الأراضي كمايقول السناتور هارت بنتون Hart Benton في خطاب ألقاه في مجلس الشيوخ عام ١٨٤٦ ونقلته حوليات سان فرانسيسكو *The Annals of San Francisco*:

> «إن قدر أميركا الأبدي أن تمضي في غزوها قدما. إنها مثل عصا هارون التي صارت أفعى وابتلعت بقية الحبال. كذلك ستغزو أميركا الأراضي وتضمها إليها أرضا بعد أرض. ذلك هو قدرها المتجلي Manifest Destiny . أعطها الوقت اللازم لذلك وستجدها تبتلع في كل بضع سنوات مفازات بوسع معظم ممالك أوروبا. ذلك هو معدل توسعها».

في أول معركة خاضتها أميركا على طريق «نهاية التاريخ» واجه أكثر من مئة مليون من هنود أميركا قسوة الإبادة أو العبودية المطلقة، وواجه ستون مليون أفريقي قسوة العبودية والموت في أبشع تجارة للعبيد عرفتها الأرض. لقد كانت أول معركة في «حرب اسرائيل المقدسة »التي يخوضها الأنغلوسكسون على طرفي المحيط منذ خمسمائة عام والتي لن يطفئوا نارها إلا بدمنا في «معصرة غضب الرب» مع نهاية التاريخ (القريبة) حين لا يبقى من أبناء مدنياتنا -بين الفرات والنيل- إلا العبيد، أو الموتى يدفنون الموتى.

عقيدة الإبادة والاستعباد

عندما نشر الشاعر الروائي المستشرق الفرنسي العنصري غوبينو Joseph Arthur de Gobineau مقالته الفرزدقية عن تفاوت الأعراق البشرية *L'Essai sur l'inégalité des races humaines* في ١٨٥٤ ونال مجدا وشهرة هائلة في العالم

الانغلوسكسوني انما كان ينظم «ألفيّة» عنصرية عن عدم تساوي البشر في الخلقة الطبيعية يسرد فيها خلاصة الأفكار الأوروبية العرقية التي راجت في زمانه. وكان من الطبيعي أن تلقى «مقالة» غوبينو رواجا في أميركا قبل أن يسمع عنها أحد من أهله الفرنسيين فقد كانت الولايات المتحدة في ذلك الأوان تلهث وراء حلم قيادة العالم على أساس عرقي مقدس متفوق على عرقية «ماما إنكلترا» العجوز وكان شعب الله الانغلوسكسوني قد أبلى في حرب الأعراق بلاء لم تعرفه الأرض، وصار له في سفك دماء المتوحشين الهنود واستعباد الملعونين السود تاريخ عرقي مجيد يؤهله لبطولة العالم.

أكثر من قرنين مضيا في «اسرائيل الجديدة»، واتسع معنى «الاختيار الالهي» وعمت بركاته كل أميركي ميزه الله ببشرة بيضاء ودم أزرق، وبندقية، وتوراة، وجوع مجنون إلى ذهب الآخرين. إنها «إرادة الله» كما عبر عنها كلينتون في خطبة الكنيست. وإنها «القدر المتجلي» وآياته التي تجسدت في «الخروج» وازدهار المستعمرات وإبادة المتوحشين واستعباد الأعراق المنحطة وأنهار الخيرات تفيض بها «أرض الميعاد» وهي تتسع وتتسع مذبحة بعد مذبحة ومعاهدة سلام بعد معاهدة سلام. وإنها إرادة «قوانين الطبيعة» وقد تجلت في لغة داروين Darwin وغوبينو وكالدويل Caldwell والبراهين العلمية. لقد أشبع الوسط الثقافي الأميركي شهوتها إلى العلمنة والعلمية وروح التنوير والثورة بالخبرة المتراكمة والتجربة الطويلة مع «المتوحشين والعبيد»، فكنت ترى الصحف والأعمال الأدبية والكتب الجامعية والخطب السياسية ومواعظ الآحاد كلها مسكونة بالبرهان العلمي والدليل الميداني على «الاختيار المقدس» للشعب الأميركي الأنغلوسكسوني الذي ميزته «الطبيعة» على الأعراق البشرية وأهلته للسيطرة على العالم.

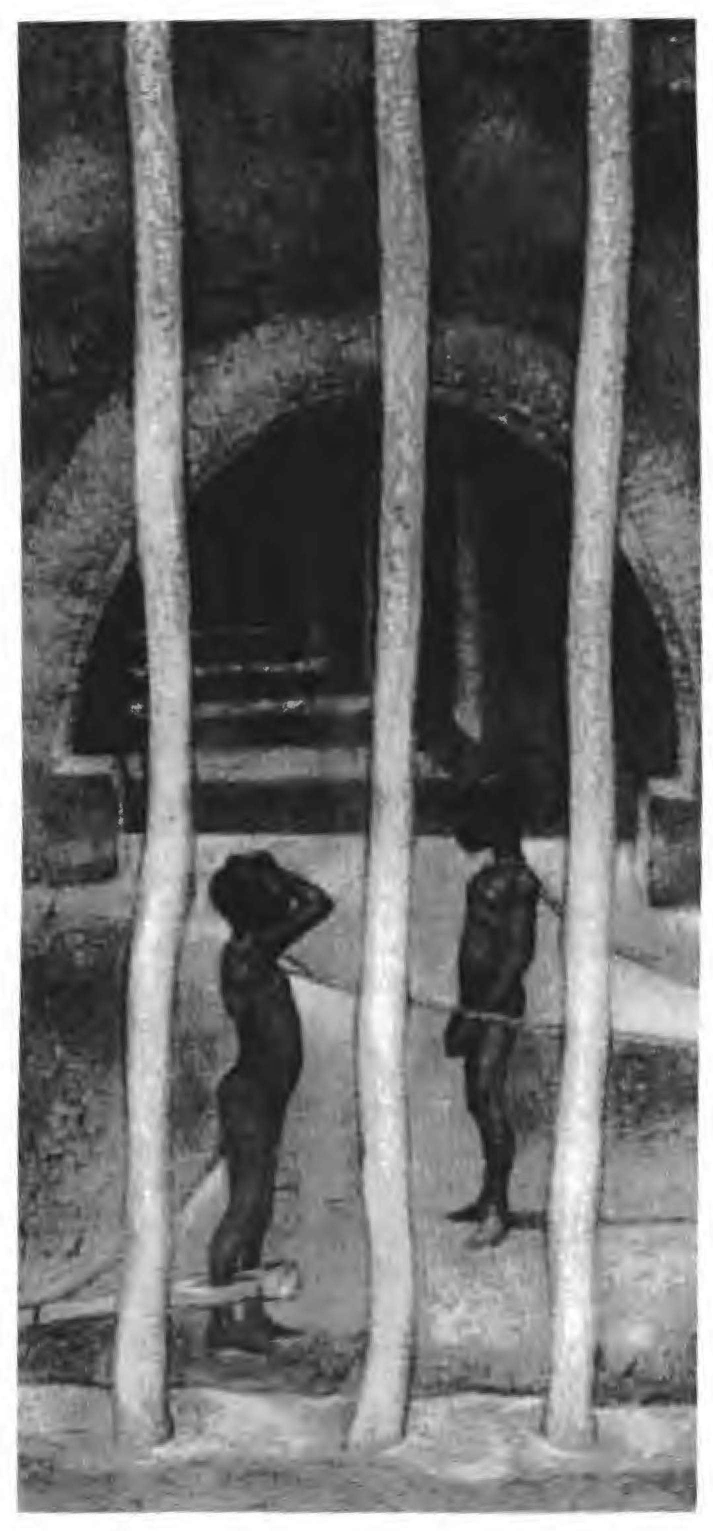
هذه التجربة الفريدة مع «المتوحشين الهنود والعبيد السود» هي التي طبعت أسلوب التبادل العلمي للأفكار العرقية مع «ماما انكلترا» علما بأن العنصرية الأميركية شبت وشابت في لاهوت «عبادة إسرائيل» هناك على الطرف الآخر من المحيط في كانتربري وفي بلاط هنري الثامن Henry VIII وجيمس الأول James I قبل أن تظهر لحية هرتزل بثلاثة قرون. كان ذلك التاجُ البريطاني الذي لا تغيب عنه الكراهية والعنصرية بيضةَ هذه الأفعى الصهيونية وأفتك سمومها. ومنذ أول مستعمرة انكليزية في العالم الجديد وأول سفينة شحن للعبيد وأول مجزرة هندية كان الأنغلوسكسون على طرفي المحيط من أعظم دعاة الحرية السياسية والفردية... لأنفسهم فقط!

ومع أن «الانغلوسكسونية» كذبة أفحش من كذبة «الشعب المختار» فان الذين برهنوا «علميا» على تفوق «الانغلوسكسون» عرقيا كانوا يشيرون إلى ذلك الخليط المهجن للجماعات البشرية التي تسكن الجزيرة البريطانية من الجرمان والسلت والفايكنغز، ثم عمموه على تلك الاخوة الضبابية بين الناطقين بالانكليزية من البيض فقط! وقد ظل هذا التفوق يعتمد أولا وأخيرا على أساطير «الاختيار الالهي» والمسيائية اليهودية التي قامت عليها كل أمجاد أميركا.

أما في أميركا نفسها فما يزال تعريف «من هو الانغلوسكسوني» يعاني إلى الآن مما يعانيه تعريف «من هو اليهودي» في فلسطين المحتلة. لهذا اكتفى تعريف التفوق الانغلوسكسوني بالنفي لا بالإثبات. فبدلا من تحديد من هم الانغلوسكسون المتفوقون الذين اختارهم الله وفضلهم القدر وقوانين الطبيعة على العالمين اكتفت البراهين العلمية بالقول إنهم كل من ليس أسودَ البشرة أو ملوّنَها في أميركا. بهذه البهلوانية اللغوية طرد «العلم» كل سكان أميركا الهنود وعبيدها السود من ملكوت الإنسانية استمرارا مع طرد اللاهوت لهم من ملكوت الحياة. بذلك صار تجريد هؤلاء الأشقياء من إنسانيتهم مبررا إضافيا لاستعبادهم أو تطهير «الأرض المقدسة» منهم دينيا.

لأكثر من أربعة قرون كان لاهوت اسرائيل وعنصرية أساطيره عن حام (أبي كنعان) وسام ويافث و«الشعب المختار» وتصنيف الأمم والشعوب عبيدا وأسيادا ومباركين وملعونين ينسب حق استعباد السود إلى «إرادة الله» ويحقنهم بالأخلاق التي اصطادوا بها عشرات الملايين من أطفال أفريقيا ونسائها ورجالها واقتلعوهم من أهلهم وبيوتهم وحقولهم ليباعوا عبيدا لشعب الله الأنغلو سكسوني. إن تاريخنا الإنساني لم يعرف أساطير تقدس استعباد التوأم لأخيه التوأم من قبل أن يولدا، وتؤمن بأن هناك إلها يميز بين بهائم العبد وبين بهائم السيد كأساطير اللاهوت الذي صنع أميركا وأباد سكانها:

«في بطنِك أمّتان ومن أحشائِك يفترقُ شعبان؛
شعب يقوى على شعب.
وكبير يستعبد الصغير»...
«بسيفكَ تعيش ولأخيكَ تستعبد»...
«يميز الرب بين مواشي إسرائيل ومواشي المصريين»...
«مباركًا تكون فوق جميع الشعوب،
لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك».



مشهد من الكتاب الوثائقي «رحلة شحن العبيد» *The Middle Passage*
للفنان الأسود توم فيلينغ Tom Feeling

ومع تشارلز كالدويل -كما سنرى لاحقا- أثبتت «التجارب العلمية» فعلا أن هؤلاء الأفارقة السود هم من ذرية «الملعون حام» وانهم بسبب هذه اللعنة مُسخوا وصاروا يشبهون القرود!

ومع أن وثائق تجارة العبيد قد اختفى معظمها فإن هناك إجماعا على أن عدد السود الذين اصطيدوا من أفريقيا وشحنوا إلى أميركا لا يقل عن ستين مليونا، لاقى ثلثاهم مصرعهم في عرض البحر المحيط مرضا وقتلا وانتحارا وغرقا وتعذيبا. لهذا لم يكن غريبا أن تجد سربا من سمك القرش يواكب سفينة شحن العبيد في انتظار من يلقى بهم من تلك الأرواح الشقية أو من أولئك المتمردين الذين لا يجدون سبيلا إلى الحرية إلا بالموت كما يروي المؤرخ جون كلارك John Henric Clark . وكيف لا يصاب العبد بالأمراض المهلكة وهو مقيد بالسلاسل في قاع السفينة لا يُطعم إلا قذرا ولا يسقى إلا كدرا، داميا تحت السياط، مريضا دون علاج، متروكا في هاوية الموت، وحيدا كأن الأرض لم تعرف إنسانا غيره.

حدثنا جون نيوتون John Newton أحد قباطنة سفن العبيد بعد أن تاب ودخل الدير تكفيرا عن ذنوبه فقال:

> «كنا نصفد العبيد من أقدامهم بسلسلة واحدة ونحشرهم على رفوف كأنها التوابيت في قاع السفينة مع الفئران والجرذان التي كانت تمتص جراحهم. وكنا في كل صباح نستيقظ لنجد الميت والحي مصفدَيْن معا بقيد واحد».

لقد ترك نيوتن شهادة نادرة عن عذابات هؤلاء السود الذين لعنوا مصيرهم، ولم يعرفوا لماذا خطفوا وعذبوا ولا ماذا يريد منهم هؤلاء الوحوش البيض الذين يسوطونهم ليل نهار في قاع السفينة. إلى أين؟ ولماذا؟ ولا من جواب. كان كثير منهم يصاب بالجنون وينتهي في لجج البحر لمصيره الفردي بينما كان كثير من الضعفاء يسترحمون الأقوياء من إخوانهم أن يقتلوهم. وفي آخر شهادته المنشورة بعنوان «نعمة الله المدهشة» *Amazing Grace* يقول: إنني أقلعت عن تجارة العبيد لأن نعمة الله هي التي أنقذت خسيسا مثلي That saved a wretch like me.

كل شهادة نيوتن تؤكد على أن الشمولية الانسانية المسيحية التي أعطت الخلاص لكل إنسان، وأن السيد المسيح الذي عاش مع المظلومين والفقراء وعانى ظلم الأقوياء وعجز الضعفاء ورفض تقليد العنف والكراهية اليهودي كما رفض التقليد الروماني أن يستولي قيصر على ما ليس لقيصر؛ كل هذه الأخلاق المسيحية النبيلة أنكرها الأنغلوسكسون المستعمرون حين عبدوا «إسرائيل» وآمنوا بأساطيرها عن حام

(أبي كنعان) وسام ويافث و«الشعب المختار» وتصنيف الأمم والشعوب عبيدا وأسيادا ومباركين وملعونين. إن معظم المستوطنين العبريين Hebriests الأوائل رفضوا تعميد عبيدهم لأنهم رفضوا الاعتراف بإنسانيتهم ولأن القانون الانكليزي يحرم استعباد المسيحي. كانوا يعتقدون بأن تعميد العبيد -كما يقول عالم الاجتماع الديني ألبرت روبوتو Albert Roboteau - سيفسد أخلاقهم ويجعلهم يقدرون أنفسهم فوق قدرها. «إن المسيحية ستطيش بصوابهم وتنزع بهم إلى التمرد والمطالبة بالمساواة أو بالمعاملة الأحسن». ثم إن لاهوت إسرائيل والمركزية الأوربية أحالتا الدين إلى ما يشبه اللغة واللون والعرق، مما يعني أن تعميد الأفارقة السود سوف يثير بلبلة بين الأعراق المتميزة ويهدد بنسف النظام الاجتماعي في المستعمرات. لكن الصدام بين «شفقة» الكنيسة البريطانية على أرواح العبيد «الوثنيين» وبين لامبالاة المستوطنين انتهى بسن قانون جديد يقول كما يذكر روبوتو:

> «إن تعميد العبيد لا يغير شيئا من شروط عبوديتهم. لقد طمأنتهم الكنيسة البريطانية إلى أن المسيحية لا تتنافى مع الاستعباد! بل إنها -أكثر من ذلك- ستروض العبيد وتجعلهم يقبلون عبوديتهم باعتبارها إرادة الله. بذلك تصبح الطاعة واجبا أخلاقيا دينيا لا مجرد خوف».

كانت الإرساليات البيوريتانية في جنوب كارولينا تطلب من العبد قبل تعميده أن يقسم بأنه لا يتعمد من أجل الحرية، بينما كانت جملة تعاليم المسيحية التي يلقيها الواعظ في العبيد المؤمنين كما يقول إدغار بنينغتون Edgard L. Pennington تتركز على :«لا تسرق دجاج سيدك وأطعه في كل ما يقول».

أبدا لم يعترف الأميركيون، لا بيوريتانز ولا انغلوسكسون ولا عرقا أبيض، بانسانية السود. أما الهنود فإنهم لم يعترفوا بقابليتهم على أن يكونوا مجرد رعايا أو حتى قطيع من الحيوانات في دولتهم، وصنفوهم كما يصنفون كل من يقاوم هيمنتهم واحتلالهم اليوم. إن الهندي هو «وحش الغابات الذي يتعذر ترويضه» كما وصفهم وليم غراهام William Graham ممثل نورث كارولينا في الكونغرس. وإنهم في رأي دافيد ليفي David Levy ممثل فلوريدا في عهد الرئيس جاكسون:

> «شياطين وأرواح شريرة لا بشر. لديهم شكل البشر لا قلوب البشر. إنك لا تستطيع أن تفكر فيهم من غير أن تقرف وتتقزز وتخاف. ولهذا، فاذا تعذر تهجيرهم فإنه لابد من ابادتهم»

“They are demons, not men. They have the human form,

but nothing of the human heart. Horror and detestation should follow the thought of them. If they cannot be emigrated, they should be exterminated."

وبينما كانت أصوات بعض الانسانيين وأصحاب الضمير الحي تحاول «تحسين صورة الهندي» باثبات قابليته الانسانية على التحضر والتمدن والتكيف مع جلاده المقدس لم يكن هنالك من يسمع هذه الأصوات الخافتة في ضوضاء الشعارات العرقية ورهج البارانويا الدينية. وظل سفك دماء الهنود وتشريدهم أو سجنهم في مناطق «حكم ذاتي» موقت تسمى reservations آيات جديدة على انتصار أفكار التفوق العرقي والإختيار الإلهي إلى أن صارت سياسة رسمية وشعارات علنية بعد ١٨٣٠. ولطالما كانوا يعللون الهنود بأن هذه المناطق التي يصفها مؤرخ الحروب الهندية جون تيبل John Tebbel بأنها شكل من أشكال معسكرت التعذيب وأقفاص الحيوانات ستكون وطنا دائما لهم يمارسون فيها عاداتهم وتقاليدهم وحكم أنفسهم بأنفسهم بينما كانت القوة السياسية الأميركية كما على قناعة مطلقة بأن هذه المناطق ليست إلا أحد أسلحة الإبادة لأن هذا الهندي كائن منحط لابد من تطهير الأرض منه. (عن الحكم الذاتي للهنود الحمر حديثا، انظر كتاب فيليپ كينيث Philip Kenneth «الحكم الذاتي الهندي» *Indian Self-Rule* ففيه شهادات واقعية عن هذا الحكم منذ روزفلت حتى ريغن). كانت كل الأعذار والمبررات العلمية لهذا «الموقف النبيل» تضرب جذورها في لاهوت الانتقام والكراهية والشتائم المقدسة للكنعانيين والأمم الملعونة التي كانت تسكن فلسطين والمناطق الواقعة بين الفرات والنيل.

وعلى استحياء شديد، بدأت تتردد بين الكتّاب المتنورين والانسانيين الرومانسيين عبارة «الوحش النبيل Noble Savage». كان معظم هؤلاء الكتاب مثل هوثورن Nathaniel Hawthorne وثُرو وميلفيل قد توصلوا -مع نتائج «العلم»- إلى قناعة يائسة بأن هذه الوحوش النبيلة في أحسن أحوالها كائنات مأساوية وانها بالتأكيد أكثر من بهائم متوحشة bestial savages لابد من أن تفنى، وهي اللهجة التي تخاطبنا بها السياسة الأميركية اليوم عمليا والتي أكد عليها الرئيس كلينتون في تلذذه السادي بمذبحة قانا وبدم ليلى العطار وأطفالها الصغار وفي خطابه في تل أبيب وشرم الشيخ عندما أكد بأن «رحلة إسرائيل وأميركا رحلة واحدة Your journey is our journey » وهدد كل من يقاوم الاحتلال بأنه سوف يستأصل root out . لقد ذكر الرئيس جون كوينسي أدامس John Quincy Adams في مذكراته أن وزيره هنري كلاي Henry Clay كان شديد الشفقة على

الهنود. إن حقائق العلم جعلته

«على قناعة بأن تمدين الهنود مستحيل، وأن قدرهم الحتمي هو الإنقراض. إنهم، مقارنة بالانغلوسكسون الذين يأخذون مكانهم الآن، عرق لا يستحق البقاء وسلالة عاجزة عن التطور. لهذا فإن اختفاءهم عن وجه الأرض لن يكون خسارة للعالم».

أما توماس دو Thomas Dew فكان يرى أن «الحل الوحيد» لانقاذ الهنود (والعرب اليوم) من الموت هو أن يصيروا عبيدا يرضون بما ارتضاه العبيد. وهذا ما جاء في عقيدة جيمس بولدين James Bouldin الذي كان يقول:

«انظروا إلى السود. إنهم يزدادون عددا في أميركا لا لشيىء سوى أنهم ارتضوا بأن يصيروا عبيدا في ظل أسيادهم الانغلوسكسون».

لقد ظل علماء أميركا أكثر من عقدين يقدمون البراهين العلمية التي تدعم وجهة نظر كلاي ودو وبولدوين وشفقتهم الانسانية. ولحسن الحظ فإن هذه الشفقة المهينة التي أبداها هنري كلاي ظلت محصورة بين بعض الطوباويين والشعراء الرومانسيين وبعض الرهبان الطيبين الذين آلمهم أن يفنى الهنود قبل أن تتخلص أرواحهم من الوثنية. أما عامة البشر من الباحثين عن مزيد من الأرض ومزيد من الثروة ومزيد من التقرب إلى ربهم بدم الكنعانيين فإن كل هذه الثرثرة الأدبية لم تكن لتعني لهم شيئا أمام سيل أدبيات الرعب والتخويف التي كانت تصنع من الهندي المسلوب المنهوب المغلوب المهدور الدم شيطانا مجرما معتديا على جلاده المقدس البريء . وكانت التجارب العلمية التي أجريت على الهنود قد مدت الخيال الأدبي والشعبي بمزيد من القناعة بحتمية إبادة الهنود وانقراضهم تلقائيا بسبب طبيعتهم المنحطة.

هذه الأميركا الأرض التي وُعد بها الشعب الأنغلوسكسوني المختار هي بلاد الهنود منذ آلاف الأجيال. وهي مهد حضارات وأشكال متطورة من الفن والبنى السياسية والاجتماعية والثقافية. لقد كانت لهم ديانات نبيلة ونصوص مقدسة إنسانية وعمارة متطورة مدهشة، واشتغلوا بالرياضيات والفلك والطب والكتابة والزراعة وصنعوا الأدوات والعقاقير ومراصد النجوم حين كان أهل الجزيرة البريطانية فوق أغصان الشجر. تصور مطابخنا الانسانية بدون بندورة (طماطم) أو بطاطا أوذرة أو غير ذلك الكثير مما يحكي قصته الأنثروبولوجي جاك وذرفورد Jack Wetherford في كتابه الوثائقي «الواهبون الهنود *Indian Givers*» الذي يروي فيه عن ثورتهم الغذائية وتقنياتهم الزراعية وتقدمهم الطبي والصناعي والهندسي

والدستوري. إن كل هذه المنجزات الإنسانية التي طمست بضجيج البروباغندا الأميركية تشهد على عبقرية الهنود وتطورهم الحضاري يوم لم يكن لدى جلاديهم إلا الكراهية المقدسة والعطش إلى الدم.

في عشرينات القرن الماضي أطلق الدكتور شارلز كالدويل Charles Caldwell نظريته الشهيرة عن أصل العرق الأبيض في كتابه العرقي الخالد «خواطر في وحدة الجنس البشري» *Thoughts on the Original Unity of the Human Race* فقال إنه يتحدر من ذرية نوح، وأنه كان في زمن من الأزمان عرقا متخلفا كالسود والهنود لكن ملكاته الطبيعية المتفوقة هي التي أهلته لقيادة حضارة العالم. وقال إن الأفارقة السود هم من ذرية الملعون حام وانهم بسبب هذه اللعنة مسخوا وصاروا يشبهون القرود. أما الهنود فقد خصهم بأعجب تجربة علمية في تاريخ العلم الانغلوسكسوني قبل أن يقرر بأن قدرهم مشؤوم وأن الحضارة حكمت عليهم بالانقراض تماما كما حكمت على الحيوانات المفترسة. لقد فتح الدكتور كالدويل رؤوس عدد من الهنود الحمر (ربما اصطيدوا خصيصا لهذه التجربة) وفحص مافيها ثم قارنها ببعض الجماجم الهندية التي نبشت من مقابر قديمة فتوصل إلى النتيجة العلمية التالية:

> «عندما يتحول الذئب والجاموس الوحشي والفهد إلى حيوان أليف كالكلب والبقرة وقطة البيت؛ عندها، لا قبل ذلك أبدا، ربما يتحضر الهندي ويصبح مثل الإنسان الأبيض».

لقد اكتشف العلم كل قوانين الانقراض في جسد الهندي الأحمر ودماغه وأخلاقه ولغته ودينه وعاداته، وظل أمل الآنسانية معقودا على أن يعجل «الجلاد المقدس» في هذه النهاية المحتومة لما فيه الخير لأميركا والعالم (الذي تهيمن عليه أميركا). هكذا اقتضت هذه الغاية النبيلة أن تكتفي الحكومة الفيدرالية بالتعليق على مذابح الهنود الوحشية في كاليفورنيا خلال خمسينات القرن الماضي بأنها استجابة لقوانين العلم والطبيعة التي أرادت أن تستبدل بقوم منحطين أقواما متفوقين. هذا المنطق تبناه اليوم بعض فقهاء والهيمنة والاحتلال في عالمنا العربي كي ينتهوا في حكمهم على العرب والمسلمين إلى ما انتهى إليه الدكتور كالدويل في حكمه على الهنود.

إن كل تاريخ أميركا كما يرى هربرت غانس Herbert Gans كان حربا على الضعفاء والضحايا والفقراء والمظلومين استخدمت فيها كل أسلحة التشويه والتشنيع والتزوير الممكنة لقتل روح هؤلاء الضحايا وأخلاقهم. إنها تتطلب منهم دائما أن

يبرهنوا على آدميتهم ويثبتوا حسن سلوكهم لجلاديهم ضمن شروط معجزة لا تختلف عن شروط حسن السلوك التي يطلبها الذئب من النعجة والمزارع من البقرة. وقد وقع بعض الهنود في هذا الفخ (كما وقع الفلسطينيون وبعض العرب والمسلمين الذين صار قصارى جهدهم أن يستجدوا من السيد كلينتون أو بيريز أو نتنياهو شهادة حسن سلوك لأنفسهم أو للعروبة والاسلام) فكانوا وهم يقدمون لجلاديهم البرهان بعد البرهان على آدميتهم وحسن سلوكهم يحفرون قبورهم بأيديهم ويمهدون الطريق لابادتهم. كل ما أرادته هذه الحرب النفسية هو أن تضيف مزيدا من التعاسة والشقاء إلى حياة الضحايا من الهنود والسود والفقراء والعرب والمسلمين وتعريهم من بشرية البشر لتجعل منهم فريسة سهلة. إنها كما يصفها غانس في كتابه الرائع «الحرب على الفقراء» *The War Against the Poor*

«حرب تشنيع وتجريح وتعيير وسحق لهؤلاء الضحايا لجأت إلى التشكيك في طبيعتهم وأخلاقهم وقيمهم وإنسانيتهم لتشيع اليأس من وجودهم ومن مستقبلهم. بهذا تصبح مساعدتهم هدرا ويصير انقاذهم عبثا لأنهم [وهذا بيت القصيد في هذا المنطق العلمي] منحطون طبيعيا وأخلاقيا ومسؤولون وحدهم عن كل ما أصابهم». إنها «إرادة الله» و«القدر المتجلي».

عندما وقع القضاء على هؤلاء الأشقياء في عهد الرئيس جاكسون Andrew Jackson اتخذت حملة التهجير والإبادة بعدا وحشيا. ولأن الجريمة يجب أن تستند إلى قانون في «دولة حكم القانون» فإن الرئيس جاكسون وقع قانون تهجير الهنود وجعل سياسة الاستئصال والترحيل والاقتلاع والقتل التي انتهجها المستوطنون أكثر من ٢٥٠ سنة سياسة شرعية. بذلك أعطى الحق لكل ولاية بل لكل أميركي أبيض أن يغتصب أرض الهندي وبيته وأملاكه ويطرده منها، ووضع كل حياة الهنود ومصيرهم قانونيا بين أشداق المستوطنين الذي صار يحق لهم أن يتعاملوا معهم على أساس الشعار الذي أطلقه الجنرال فيليب شريدان Philip Sheridan : «ليس هناك من هندي صالح إلا من مات»

The only good Indian was a dead one.

وهو ترجمة حرفية للشعار المقدس: « أفضل الغوييم (غير اليهود) اقتله، وأفضل الأفاعي اسحق رأسها».

The best of Gentile—kill him; the best of snakes—dash out its brain

ومع هذا القانون كان لا بد من إلغاء كل اتفاقيات الهدنة والسلام مع الهنود الذين لم يكن أمامهم إلا الإقتلاع أو الموت.

الذين انصاعوا لقدر الاقتلاع وجدوا أنفسهم عام ١٨٣١-١٨٣٢ في أسوأ شتاء عرفه الجنوب الأميركي يتسكعون في العراء الثلجي دون غطاء ولا حذاء ولا ملابس الشتاء. وكما يقول ريجنالد هورسمان Reginald Horsman :

«لقد رماهم "شعب الله" إلى الذئاب جائعين مرضى مقهورين بينما كان المستوطنون يطاردون فلولهم المتعبة ليقتلوهم ويتسلوا بصيدهم. ليس هناك من يعلم عدد من من مات في هذا النزوح الخرافي لكن التاريخ الرسمي الأبيض يتهم الأمراض والأوبئة بابادة الملايين في تزوير صار يعرف بأنه حرب الإبادة الثانية».

كان الرئيس جاكسون يعتقد بأن «الرعاية الالهية» وقوانين الطبيعة التي أخذت بيد العرق الأميركي (الانغلوسكسوني) إلى القوة والرفاه هي العلة في أن الهنود كائنات مختلفة عن البشر. ولهذا فإن على هؤلاء المنحطين أن يرتضوا ما ارتضته لهم العناية الالهية وما أقرته نتائج العلم وأن يذعنوا ويتخلوا عن مناطقهم الموات لهؤلاء الذين اختارهم القدر لاحيائها. وفي رسالته السنوية الثانية قال جاكسون متسائلا:

«ماذا يفضل الإنسان الصالح؟ أيفضل بلدا تكسوه الغابات وتهيم فيه آلاف قليلة من المتوحشين أم يفضل جمهوريتنا الإصلاحية المزدهرة بالمدن والمزارع والمنجزات العظيمة في الفن والصناعة، والعامرة بأكثر من ١٢ مليون إنسان ينعمون بالسعادة ويتمتعون بالحرية والحضارة والدين».

وكانت هذه الرعاية الالهية قد تجلت كذلك في حملة تنزيح الهنود إلى غرب المسيسبي عندما تبين أن غالبية أعضاء الكونغرس يؤمنون بأن الانغلوسكسون شعب مختار وأن الهنود وغيرهم كائنات منحطة لا بد لها أن تنقرض كما عبرت عن ذلك عقيدة بولدين James Bouldin بقولها:

«إن قدر الهندي الذي يواجه الأنغلوسكسوني مثل قدر الكنعاني الذي يواجه الاسرائيلي: إنه الموت».

في البدء لم يستطع الهنود أن يفهموا حرب إبادتهم والتوسع في أراضيهم وحاولوا أن يجدوا لها أعذارا بريئة. إن الهنود كما وصفهم مطران الرحمة الانساني النبيل برتولومي دي لاسكازاس في مذكراته

«أكثر شعوب الأرض تواضعا وصبرا ومسالمة وسكينة. إنهم لا يعرفون الضغينة والصخب والعنف والخصام. شعوب تجهل الحقد وسوء الطوية، وتعف عن الثأر والانتقام»

ولهذا فما كاد الهنود يدركون مايخبئه لهم «الشعب المختار» من مفاجآت سعيدة في العالم الآخر حتى بدأت حرب التشنيع والتشويه والتحقير التي ماتزال - بعد تطهيرهم عرقيا- تلاحقهم إلى الآن إلى مقابرهم الجماعية. كانت حرب التشويه التي جسدتها في زمن الرئيس جاكسون رواية بيرد Robert Montgomery Bird «شيطان الأدغال *Nick of the Woods*» تقوم على منطق بسيط يلخصه ريجنالد هورسمان بهذا القانون الخالد للبروباغندا الأميركية:

«إن اغتصاب أراضي الهنود وابادتهم فضيلة انسانية،
أما مقاومة الهنود لذلك الإغتصاب وتلك الإبادة فوحشية وشر».

كانت حرب التشنيع على الهنود جزءا من حرب الابادة والتوسع حتى آخر شبر في أرض كنعان. لم يترك التوسع للأميركيين أي أمل في قبول الهنود ضمن الأسرة الأنسانية، ولم تبق لهم «إرادة الله» أي خيار غير إبادتهم. كانوا يرون في هذا التوسع -كما يقول مؤرخ الأديان توماس هيتلا Thomas R. Hietala- استمرارا لمسيرة موسى إلى أرض الميعاد. إن شهوة التوسع الجائعة أبدا إلى أرض الهنود الطيبة والعطشى أبدا إلى دماء الهنود الزكية جعلت الحكومة الفيدرالية تضرب رقما قياسيا في نقض معاهداتها مع الهنود. فأميركا لم تحترم واحدة من معاهداتها مع الهنود التي زادت على ١٢٢ معاهدة. لقد نقضتها كلها. وهذا ما عبر عنه الزعيم الهندي «رد كلاود Red Cloud» بقوله:

«لقد عاهدونا ووعدونا بالكثير مما لم أعد أحصيه ولا أتذكره، لكنهم لم يحترموا من كل عهودهم ووعودهم إلا واحدا. قالوا بأنهم سيأخذون بلادنا منا وقد نفذوا ذلك فعلا».

وحين كان الوزير جيمس باربورJames Barbour يتفاوض مع الهنود على معاهدة جديدة قال:

«إنهم يرون بأعينهم أن اعلاناتنا ثرثرة فارغة، وأن وعودنا كاذبة، وأن طمعنا في الأرض يجعل حياة الهندي عندنا ضحية رخيصة مبتذلة. إننا نقول للهنود الآن إن لهم أن يختاروا ما شاءوا من الأرض لأنفسهم. ولكنهم يسألونني: كيف سنثق بأنك لن تنفينا من جديد عندما تشتهي امتلاك تلك الأرض. إنهم يعرفون أن مد

الانسان الأبيض قد فاض وأنه لن يتوقف إلا عند شواطىء المحيط الهادي».

كان نقض المعاهدة القديمة مقدمة جديدة لاستلاب المزيد من الأراضي وقتل المزيد من البشر وتهجير المزيد من هؤلاء الأشقياء الذين يضطرون بالقوة والإرهاب إلى توقيع معاهدة جديدة سرعان ماينقضها الأميركيون في حلقة دموية لم تبق من ١١٢ مليون هندي في أميركا الشمالية -بحسب التقديرات الأركيولوجية، أول هذا القرن- سوى ٢٥٠ ألفا يعيشو ن في معسكرات تعذيب وموت بطيء ذليل لا يشبهها شيء على وجه الأرض إلا مناطق الحكم الذاتي في فلسطين المحتلة.

هذا ما عبر عنه الزعيم الهندي پياپو Piapot بقوله:

«لكي نصير وحدنا أسياد أرضنا فقد حجزونا في مناطق صغيرة مثل راحة يدي، وأغدقوا علينا وعودا طويلة مثل ذراعي. لكن وعودهم صارت في السنة التالية أقصر ، ثم صارت تقصر وتقصر مع توالي السنوات إلى أن صارت الآن أصغر من أصبعي. ومع ذلك فانهم لم يحترموا نصف هذه الوعود»

In order to become sole masters of our land they relegated us to small reservations as big as my hand and make us long promises as my arm; but the next year the promises were shorter and got shorter every year until now they are the length of my finger, and they keep only half of it.

على مستوى الوعود السياسية، أرادت بريطانيا وهي تحارب الفرنسيين أن تكسب الهنود إلى معسكرها فوعدتهم بتأسيس «الدولة الهندية الكبرى» أو ما يعرف بالفيدرالية الهندية، لكنها بتقليدها البريطاني العريق نقضت كل وعودها للهنود بعد انتصارها في تلك الحرب، ثم حاولت جهدها تمزيق شملهم والحيلولة دون وحدة صفهم. بذلك واجهت كل قبيلة من قبائل الهنود موتها المحتوم منفردة ضعيفة في وجه «القدر الانغلوسكسوني المتجلي». وبينما كان الهنود والخنجر البريطاني في ظهرهم في حال من الذهول والغضب والاحباط وعدم التصديق كان البريطانيون وقد صار الشمال الأميركي تحت سيطرتهم في حال من النشوة والعربدة والتجبر والصلف الذي عبر عنه الجنرال المنتصر توماس غايج Thomas Gage لحلفائه الهنود المخدوعين أفضل تعبير بقوله:

«ألم يحن الوقت لكي يفهم الهنود أنهم لم يكونوا حلفاء بل حثالة من العملاء الأنذال».

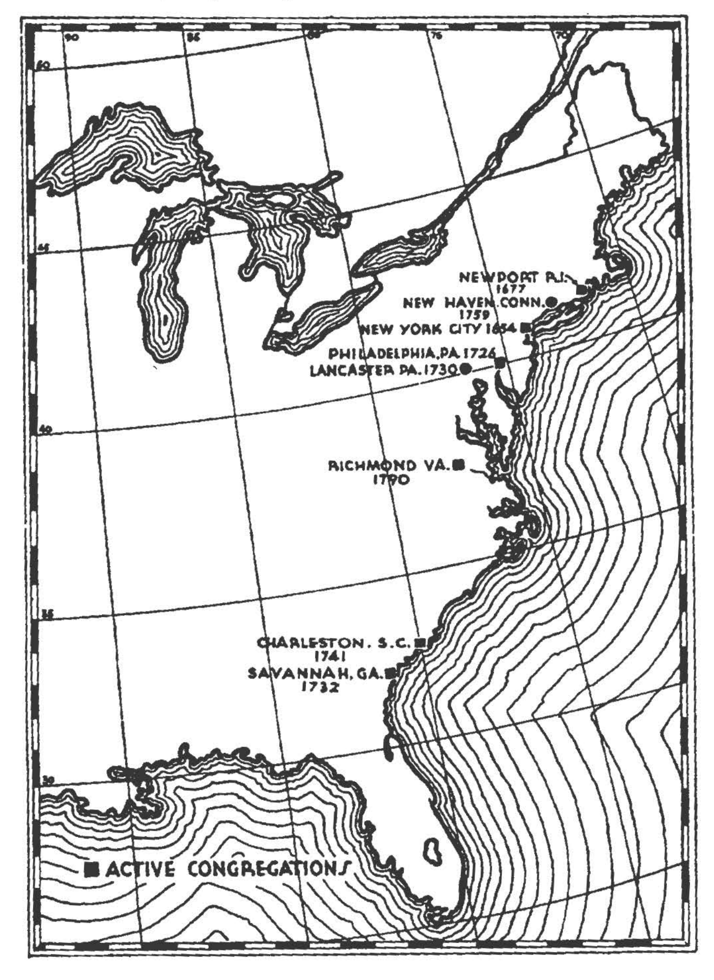
وعندما صار هنود توسكاروراس Tuscaroras قوة مخيفة استطاعت أن تهزم المستوطنين الانكليز والألمان في أكثر من معركة (١٧١٢) تحالف المستوطنون مع قبائل الشيروكي Cherokees والياماسي Yamasees وغيرهم حلفا لم يثمر شيئا سوى تجنيد هؤلاء الهنود المغفلين لقتل إخوانهم وإضعافهم في حرب دمروا فيها كل مدنهم وذبحوا كل أسراهم الذكور، وساقوا من تبقى عبيدا للانكليز والألمان لقاء وعود كاذبة وفتات من ثروتهم المنهوبة. ولم يمض قرن واحد حتى أبيدت قبائل الشيروكي والياماسي وغيرهم من القبائل الحليفة التي تجندت للدفاع عن الانكليز والألمان بالطريقة التي ابيد فيها هنود توسكارارس. وعندما ثار هنود البحيرات الكبرى ووادي أوهايو مع هنود سينيكا Ceneca في ١٧٦٣ فاستولوا على كل المواقع العسكرية البريطانية باستثناء نياغارا وديترويت وحصن پيت Pitt لم يحاربهم البريطانيون بالسلاح، لكنهم مزقوهم بشراء الذمم الرخيصة، وضربوا بعضهم ببعض بمفاوضات سلام سحبت كل الأرض من تحت أقدامهم وتركتهم مشتتين ضعفاء يواجهون حرب الإبادة بينما لاقى پونتياك Pontiac زعيم التمرد مصرعه على يد أخيه الهندي (صديق الغزو البريطاني).

وفي أيام الثورة التي كانت كارثة على الفيدراليات الهندية، تكررت المواعيد والعهود من كل جانب فأمطرت المن والسلوى على قلوب الهنود اليائسين الذين ظنوا أن اعداءهم قد صاروا «أصدقاء» سيصدقونهم ماوعدوهم. بذلك انضم هنود الشيروكي Cherokee إلى صفوف البريطانيين وراحوا يقتلون إخوانهم الهنود الذين يحاربون في صفوف الثوار ليجدوا أنفسهم في النهاية وقد أحاط بهم إخوانهم مع جيش الثوار فأبادوهم ودمروا محاصيلهم وحرقوا مدنهم. كذلك انضم هنود الألغونك Algonquians إلى البريطانيين وصادقوهم ليكتشفوا بعد نهاية الحرب أن البريطانيين كما فعلوا في فلسطين فضلوا أن يتخلوا عن الأراضي الهندية التي يحتلونها للغزاة المستوطنين لا لأصحابها الهنود. ووسط ذهول الهنود وإحباطهم تلقى المستوطنون الأميركيون الثوارمن الانكليز كل الأراضي التي عجزوا عن احتلالها واستيطانها بأنفسهم.

كانت المناطق الهندية عرضة سهلة لعدوان المستوطنين الباحثين عن الثروة والذهب والمراعي والمياه والحقول الخصبة. وكان «أمن» المستوطنين يفرض كل شيء ويرسم مصير هؤلاء الضحايا. فكلما زاد التوسع والاستيطان تطلب «الأمن» مزيدا

من التوسع والاستيطان، وكلما زاد التوسع والإستيطان زاد التفنن في تفسير متطلبات «الأمن» إلى أن لم يبق أمام الهندي إلا البحر والعدم. كانت «نظرية الأمن» تعني كل شيء يشتهيه المستوطنون؛ كل شيء. وكانت لدى هؤلاء المستوطنين (الذين تصدرهم أميركا اليوم إلى الأراضي المحتلة) دائما بندقية وتوراة وملايين الأعذار لترويع الهنود ونهب ذهبهم وثروات أراضيهم وممتلكاتهم الخاصة والتسلي بأرواحهم وحرق محاصيلهم وبيوتهم وإطعام بناتهم وصبيانهم للكلاب. إنهم يريدون أرض كنعان المقدسة بدون كنعاني واحد فيها، فتلك هي إرادة الله. لقد كتب القبطان جورج ڤانكوڤر Captain George Vancouver في يومياته عام ١٧٩٣:

«أثناء رحلاتنا، ولا سيما في رأس دسكوڤري كنا نرى تلالا من الجماجم والأعضاء وعظام الصدر والأعمدة الفقرية وغير ذلك من رمم الضحايا مبعثرة على طول الشاطىء. ولقد أخبرني أعواني أنهم



المستعمرات اليهودية الأولى في الولايات المتحدة، وأولها أقيمت فيما يعرف اليوم بنيويورك عام ١٦٥٤ مع بداية الإستعمار الأنغلوسكسوني للقارة الأميركية

شاهدوا في تجوالهم هناك كثيرا من مثل هذه المقابر الخرافية العائمة مما يعني أن دسكوفري كلها كانت مقبرة لكل ما جاورها من هذه المناطق التي كانت عامرة بالسكان».

أباد «شعب الله» الانغلوسكسوني كنعانيي الأرض الأميركية المقدسة في مذبحة بعد مذبحة، ودمر مدنهم وقراهم مدينة مدينة وقرية قرية، ونهب أرضهم ومساكنهم وممتلكاتهم ثم عراهم وتركهم للريح والذئاب.

اصطاد زعماء مقاومتهم ورجالهم الروحيين، ومحا معابدهم وهياكلهم المقدسة فقتل كهنتها وسرق ذهبها وحجارتها الكريمة ثم سواها بالأرض.

مزق أواصر شعوبهم وقبائلهم بالارهاب والتهجير وشراء الذمم ومفاوضات السلام حتى تركهم أشلاء ممزقة دون هدف ولا قادة ولا أرض ولا مستقبل.

استعبد من استعبد منهم في المزارع وسخرهم لما يذلهم ويمتهن إنسانيتهم، وحرمهم من كل أمل ولم يبق لمن نجا منهم جسديا إلا اللهاث وراء لقمة الموت البطيىء تحت أقدام الغزاة.

اتهموا هنود البيكو Pequot بأنهم أولاد الشياطين، وشنعوا عليهم وشوهوهم جسديا وروحيا وأخلاقيا فيما كانوا يسفكون دمهم ويسحقونهم كالحشرات. ولقد مضت سنوات طويلة حتى استطاع هنود البيكو أن يصدقوا فعلا أن وحشية هؤلاء الغزاة الذين استقبلوهم بالمحبة وأعانوهم ومدوهم بكل ما يعينهم على الحياة ليست هفوة أو سهوة بل سياسة وعقيدة. وفي شهادة نادرة للراهب روجر وليامس Roger Williams كتبها في ١٦٤٣ نجد وصفا لتفوق أخلاق الهنود وسموها وأثرتها وكرمها ورغبتها في التعاون والمشاركة، ونجد وصفا لأخلاق المستعمرين البيوريتانز الذين «كان هدفهم الأسمى وواجبهم المقدس هو إبادة الهنود عن وجه الأرض»:

Their avowed objective, and a sacred duty was to rid the world of Indians

كان تجريد هنود البيكو من ممتلكاتهم وكسر قوتهم واختراع العذر بعد العذر لمواصلة حرب النهب والإبادة هي صلاتهم اليومية المقدسة. وكان المستوطنون في كل عدوان على هؤلاء الأبرياء الطيبين يقتلون المئات من الأطفال والنساء والشيوخ وذلك باحراقهم في مآمنهم وحصونهم وبيوتهم وملاجئهم التي يلجأون إليها، أو يتركون عددا منهم يفر مشوها مثخنا بجراحه لينشر الرعب في القبائل والشعوب الهندية المجاورة. في سنة ١٦٣٧ ذبحوا هنود البيكو ذبحا كاملا ومحوا



صيد الهنود بالكلاب الدموية bloodhounds أثناء حملات إبادتهم في فلوريدا. رسم من عام ١٨٤٣، عن كتاب *The Native Americans*.
الرسم من محفوظات archives ولاية فلوريدا في تلاهاسي Talahassee

كل ما يشير إلى ذكرهم ووجودهم على وجه الأرض. وحين أسروا الزعيم الهندي ميتاكوم Metacom المعروف باسم الملك فيليب King Philip قطعوا رأسه وأجبروا أهله على أن ينصبوا رأسه على سارية عالية في بليموث. وبعد نقاش لاهوتي صاخب حول مصير أرملته وابنه صدر القرار ببيعهما مع المئات من شعبه الذين اصطيدوا مثل الحيوانات فقتل منهم من قتل واستعبد منهم من استعبد. بذلك تم القضاء نهائيا على مقاومة الهنود في نيو انغلاند فلم يلفظ القرن السابع عشر أنفاسه إلا وقد شيعه شعب الله الانغلوسكسوني بسبعين مليون قتيل هندي أحمر.

قبل أن ينتهي ذلك القرن بسنتين وقف الأب الفرنسي كوزميه Father St. Cosmé على مرتفع يطل على قرى كواپاوس Quapaws في المسيسبي وقال عبارته الشهيرة: «لاشيء سوى القبور. لا شيء غير الموتى».

كان تدمير ثقافة الهنود ومنجزاتهم وحضاراتهم أفظع من تدمير وجودهم الجسدي. إنها حرب ما تزال مضرمة حتى هذه الساعة في الأدب والسينما والمسرح والاعلام وكل اسطول البروباغندا الأميركية، وهاهم كنعانيو العالم الجديد غابوا واندثروا وانمحى ذكرهم من ذاكرة العالم. إن صورة الهندي في كل هذه الأرض هي الصورة التي رسمها جلادهم المقدس الذي اقتلع هنديتهم بالحديد والنار والتزوير وحرب التشويه والتحريمات والعقوبات والقوانين العنصرية فلم يبق منهم إلا الموتى يدفنون الموتى. وهاهي شجرتهم وقد احتطبها كما يقول لهم محمود درويش «حطاب أمي وأمك» فلم يبق منهم في أول هذا القرن إلا ربع مليون هندي مسحوق بالمخدرات والكحول والفقر الاجباري. خمسمائة عام من حرب إسرائيل المقدسة التي لا يستطيع أحد أن يرى وثائقها أو يعرف لها تاريخا غير التاريخ الأبيض. لقد اختفت رواية الهنود لتاريخهم ومحيت في ضجيج العجرفة الخالدة للمنتصرين الغزاة. وهذا في اعتقادي ما أراد الصديق الهندي مايك هولي إيغل أن يؤكد عليه في رسالته حين قال:

> «تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض. إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزوم. ويا الله ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم. وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض. هذه واحدة من الابادات الكثيرة التي واجهناها وسيواجهها الفلسطينيون[...] إن جلادنا المقدس واحد».

منير العكش

قصائد نيوجيرسية

يوم ١٩٩٦/٥/٢٨ ، زار الشاعر أميركا.
مكث فيها شهرا كتب خلاله من بين ما كتب هذه القصائد
قبل أن يعود أدراجه إلى السويد.

أميركا

هل أنت ضـــجرٌ مربوط بسلاسل من محاريبِ رمانات العبادة
أم حافاتٌ من قثاء أبيض تلوح كطيور ترافقَ دوائر الماء؟
من يطعمك صباحا بزهر السوسن والفل والنسرين
تغسلين بالزُّوفا أقــدامَ كهنة البعـــل وتناجين
أصنامَ ذاتك المصنوعة من دم الدولارات؟
هل أنت منائرُ من ذهب تنضح أثداؤك أشواقــًا من حلمات
مسوّرة بخطوط من ذهب الإبريز
أم صنم مربع الساقين يتحولُ على قماشة التاجر إلى بقع صفراء؟
تنفتحين كشبّاك من خيــوط ذهب مصفّى في خزائن وأهـــراء كوش
وتسورين ظلالك الشفافة بحبّات مضيئة من رمال صحراء العرب
قدور أنت، وتحتضنين في مقصوراتك الرموشَ والمناشل
تصـــارعيَن صـــنمَ الألفبــاء الـذي صنعــه حيرام
وتنتشلين تاج الخزف من رأس هرقل
وكؤوسٌ أنتِ، نحاسية مصنوعة من ترابِ البحر

تستقطرين على فخذيك دماءً من غَمر الكواكب
مذابحك من ذهب، وموائدك خاصة بخبز التقدمات
تكايـاك مـن ذهـب الابـريـز
وسلاطينك يغسلون بالزوفا أردان النساء
وأنت تحملين مناضحَ حيرام الصوري إلى بحورٍ ساقطة من سماء رابعة
وتحملين كراتك الدهريةَ إلى ميادين التيجان
وأنت بحر من كلمات يمتد ذراع سواحله ملايين الفراسخ والكيلومترات
على كؤوس هياكلك وكرات مذابحك تكتبين أسرارَ تيجان الملوك
لأن كؤوسك من خزف منير، وأكوابُك تُهدى لملوك العشائر
كيف تبيعين حجارتك لتجـار الفضة
وملاقط خزائنك لتجار الاسماعيليين العرب؟
على أسوار القمر تتكئين كمناضح سحرية
وبالـزُوفا تغسلين أقدامَك
وهناك بين قرى ودساكر في أقاليم الكواكب تحاورين دياراتٍ من ضوء
يادي‌ناصورات الأسـرار الذهبـيـة التي أضاعـها فراعنـةً مصر
أصابعك الوردية تلوح صباحا للشمس
وأنت تحملين طفولتك السعيدة مهاجرة نحو مجرات سعيدة
استغاثة دلالك تردد: آه
من يوقف تيارات ضوء نازف من خواصر ذهب مصفى؟
من غيرك يحمل الطوبى لغطاريس البحر
ينصب منائر الفضة على موانىء الشمال؟
ركبتـاك من رخـام جبال السـعادة
ووجهك يأخذ لون السماء اللازوردي
أنت الكواكب السيارة عبر قفار تتوسد أذرعة المجرات
حافاتك وجوانبك امتداد لقامة الضوء

وأنصابك من عواميد الرحمة
أنت السلم الذي يأخذك إلى دروب الصلوات
يقيمها العبيد على قوارع الطرق
لصوتك تضرّعات نساء مقهورات يحلمن بأسرار دولارات خضراء
تصدين يرقان الإبادة وتصنعين أسرَّة من قش البيادر لمفترسيك
بين يديك محرقة لذبائح أصنام مزينة بأشعة فجر وليد
ياسلاهب من حزم الشمس تُبارك حقل الرعاة
على صهوات خيولك كُثَيْراء وبيلسان ولاذن
وفي سواعدك ويديك محرقة لذبائح أصنام العبادة
شبه ألسنة نارية تتكورين تحت قباب من سحاب ناصع
ترحبين بكهنة الذبائح في سهوبها الفاغية
وتفتحين مغاليقَ السماء لابتلاع زوابع الأرض
مساءات حالمة أنت
تزودين العالم بطنَب خاصة بالخيام العربية
تزحفين لابتلاع مواكبِ الجراد في بيدائك ذات الامتلاء التام
عيناك من لون وشَل ماء المحيط
ورُواقُ أنت قائم للترحاب بشمس الظهيرة
دائما، تستَظلين تحت وارفِ أغصان شَبَوات سعيدة
في راحتيك أسرارَ عن الجُمَع الكبيرة
تحملين طيبًا غالي الثمن تُهدينه لتجّار البحر
أسوارك من حجارة كريمة
عكفات صولجانك من عقيق أبيض
قِبابك معرّشة بسُلالات متأتية من فردوس
مضمخِ الجدران بعطر الناردين
في خزائنك تحفظين الطيبَ الذي أهدته ملكة سبأ لرؤساء أورشليم

وجدرانك تطعمّينها بذهب أوفير وخشب الصندل
عيون تماثيلك من حجارة كريمة
وتزيّنين تكاياك ومجالسَك وبُهرة مجامعك برباب
وأعواد لها أوتـــــار ممشوقة
أنت لحن تحمله إلى عشاق القصيدة
منائر تَستقبلُ في الصبـــــاحات نوارسَ البحر
في خاصرتيك سيف
كلماته مزبورة برموز الشاقل العبراني المرصع بالذهب الإبريز
تستشف رائحة الشمس من أضواء أنفاسك الفاغية
دولاراتُ أنت من عجين عاج الهنود
آنيـــة فخّـارك تصنعينـــها من تراب أحمر
يُكحل عينيـه بفرشـــاة من فضة بيضاء
وأنت ابتسامة أرزة وضحكة شجرة الجميز ترحب بمطلع شمس السعادة
عبر بحارك تمخرين بسفن مصنوعة من خشب غابات الصندل
محملة بالبيلسان والناردين الغالي الثمن
أصابِع يديك مسوّرة بالضوء ومسربلة بالنـور
وهي تستقبل شمس حزيران
قامتك قضيب من ذهب الإبريز وعكازك مصنوع من خشب الخيزران
ياآخر قوافل الرحيل تلاحظ تقليعات الكواكب
فوق مواكب الأرض
يازَحّافات تهرع لملاقـاة التَنانين العظام
تربطين مساءات أحلامك الكبيرة بنهارات عبيد
يبحثون عن لغة جديدة
وعلى جلـد رسغك تنقشين لون الجَلَـد السماوي
تباركين مساءاتك في ليلة الرابع من شهر المحبة

موازين الليل والنهار أنت
تراقبين أثداءَك وهي تنثَّ
حليبَ الاجتراحـــات الصادرةِ من الأحلام الكبيرة
تراقبين عقــارب ساعاتك لآيات وأوقـَــات وأيام وسنين
وجهـك صباحـــات من إضــاءة نجمة واحدة
ومساءاتك تُقتَطع من كبــــد الظلمة
تحمين أسوار مصاريعك حتى ولادة الفجر
من فرط جنونـك فقدت تكعيبات أسمائـك الخُنثى
وراقبتِ مدارس السـادوميين في ظهيــرة القحط
على مسَارحك تمثل أدوار عامورة
ونينوى حاملة صولجــــــان الخطايا
تصنعين لحظائر مواشيك مظلات وسقوفا لصد مطر مباغت
يا ربوات من فراسخ المحبة
يا أميركا.

II

بين مَنكبيها يستريح ظل العقل
فخـذاها من مرمر ناصع تُخبّىء رموز النهارات الجميـلة
حبيبة في عطاءاتها والعـالم الآخر يستريح على ذراعيها
تحصـد من نفائس السماء جذور الندى وفسائل الطـــل
شطآن لا تحصى من الطـل تستقر في فجواتهـا العميقة
في وهادها تَصنع أقراصا من شهدها وتحوله إلى لوحات سماوية
تترصد نفائس محملات بماء الذهب
ترسم قمر الآحاد والأسابيع على نفائس صحونها
أصداء هي لذخائر الآكـام الدهرية حيث سـهام الآزال
تخترق صفوفا مرتبة بدقة في ضوء نجمة مسافرة

قمم من نذور الأخوة العالمية
قرنـــــــاها قرنـا ريم
من شهقتها تنبثق رائحة الماء
تنطح بهامتها أسـوار الشعوب وتتوسد أذرعة القبائل
أجـراؤها ترضـع من أثــداء بهيموثات البـــحر
ترحـل نحو البـراري وذخائـرها من عسـجديات مطمورة
في أعمــاق رمال الصحراء
لجج هي تصنعها حيتان الماء وتربضُ في أعمـاقها
وهي صدى صلوات وابتهالات وإصغـاءات الناظر
إلى شجرة العليقة التي تحتسي قطعا حمراء من نار الصحاري
تصطاد الحَلفاء في حافــات الأنهار
وتصنع من البردي ضريحا لطفولة موسى
تراقب بواخرها المصنــوعة جدرانها من زفت بابلي
جواريها دائما ماشيات على حافات من ضفاف الأنهر
تزف سمك الوداعة
دائما تنتشل الرضعان من ماء اللجج المجنونة
كثبـان هي .. ومن رمـــل مقدس
صخور دهرية هي..و حبلى بينابيع ماء البركات
شهوة الماء في صحراء سيناء
شـهوة الأرض تحبـل بزنابـق في جنـائن سليمان
تروي عطش مواشيها وخيولها بماء مطعم بعسل الجبال الشرقية
وهي ضلوع تتناسـل منها نســاء الأرض
غابات من شجر الحور تمتد بظلالها عبر برية مترامية الأطراف
تحمل على سواعدها الفتيـة أجراس العـودة
تـلال مقرّصة بالعــاج والذهب تناجي أرواح الأنبياء والأولياء

دائما تتحدث عن تاريـــــخ طوفـــان الكلمة
ودائما تصارع الكلمات المعبأة بطاقات النور
عصـوات هي من ريح تلوي بدلال رؤوس سنابل القمح
حلباتها لمصارعـــة الآلهة المهاجرة نحو تخوم الشمس
تروي ظماء الخناجـر من أجل العبور تحت جسور العقل
وهاهي أحجار من ورد الجوريّ المجفف
تلتـــــقط في الصباح السلوى
من صحارى مسيجة بجدران من رمل البلور المفتت
تغرف خبز السماء من وهاد الصحاري
وسقيط الندى على جبهةِ بريّة، ترابها مقدس
في المســـاءات الحالمـة تَشـــهق كآبة المعذبين
في سفن تعانق وجنات المعذبين وترحل نحو تلويحات امرأة
تحمـل على مناكبها هـــودج الحريـــة وتهديها لسماء أخرى
وهاهي فنارات منصـوبة على حافات المياه تراقب رقرقات الجداول
تنث من أثدائها دقيق البركات
تملأ أوداجها من نسمات الولادة الجديدة
تستقطر من بركات نجوم السماء خمرة الانتعاشة الكبرى
ومِن مَنّ السماء تعبىء خزائنها وأهراءها
لهـا شموس خاصـة لدفء جزرها البعيدة
وتضاعف زيت أسرجتها من غابات زيتون المحبة
أهي الصعودُ من وهاد العبودية إلى أنهار مضيئة بحبر الضوء المقدس
أهي رحلة قوافل الضوء إلى شعفات جبـال مسيجة بشعار الكلمات
رونق السحاب الملون
فلولاتٌ من عطر البخور الكنائسي
عشيات الحلم الكبير

تحتضن رعاياها المبللة ثيابهم بقطرات ندى المغتربين
تغسل أوراقها الوردية من قطرات ندى الصباح
وتحت بواسق شجر الحور تُعدّ فطورها
تمسح وجهها بمنديل زركشته أصابع امرأة فينيقية
وتصنع مغازلها من جدائل الشمس
إنها آخر نماذج لمركبات السماء
وإنها مرابع لمزارع أبجدية جديدة
تستنشق بمنخاريها رياح الراحة
وتنسج من نسائمها الرقيقة قميصا من خيوط البوص والكتان
وأسميها أميركا

III

أميركا أفرانها وتنانيرها تصنع رغيف المحبة
أميركا فاتحة رحم أرض البحار
أميركا تخمّر في عبّها أجنّة الدولارات وعندما تستيقظ من غفوتها
تُرصع ببياض الفضة خدودها وشفاهها
أميركا تستقطب عبيد الأرض وترحلهم في سفن بحرية إلى مآويها
تنفخ في وجناتهم نسمات الحرية
أميركا آخر نماذج لصليب العبودية

منير العكش

وأنت إذ تفترس بعينيك
أصنام ليلة سابعة حيث مساجين الكلمة
يرمقون ثيابا رثة عليها رموز لملوك سلفوا
تلتقط صباحا نماذج من جبال حروف ساقطة
من فم ضوء مقدس.
تسافر إلى ديار الملكوت
وروحك تسامر الأرواح
وأحلامك تحف بها مواكب الفرح
ستبقى هناك من أجل بناء محطات
تسورها رغبات يراعة أكيدة
تترك سحب الصباح على منديلها الناصع
خطوطا دقيقة تتحدث عن رحلة السندباد
إلى بلاد الشمس

حيث المدينة الفاضلة ورواقها الكبير
ترفرف فوقها ربوات من أسراب ملائكة
تاركة بعد رحيلها الأبدي
ملايين من كلمات قصائد السماء

منير.. روحك يحاصرها الهواء الأميركي
وسفن الغدير البعيد
تدفعك قسرا إلى أنواء هجرة جديدة
حاملا أوسمة الضياء على صدرك

تلوح بنار المجامر الضاحكة

منير.. ياعاشق الكلمات
كم تجترح فيك آيات هذه العبارات
من بواهر المعجزات.
أحيانا تحاصرك أرواح اللغات الكثيرة
في ميناء يطل على فلوات شاسعة
يبتلع الأفق الوردي حدودها وتخومها
إطمئن
فمواكب هذه الآزال تأخذك إلى صخرة الدهور

أسرار الأيائل

يلفح وجهك هواء الأسرار برائحة اللوز
تخضب كورة ذاتك
وتفيح رائحة تسور وهادا
تجاور البحر
وتدغدغ بهواء الصباح
أجنحة النسور.

تبدأ رحلة الليلة الثامنة
نحو برازخ الروح
لن يكون هناك الافتراس الكلي لخطايا المهاجرين
أميركا تغمر كأس الرغبة بخمرة الروح
بينما الصمت المكوّر داخل هياكلها القديمة
يصنع نماذج دولاراته من ذهب التراب

ظباء هذه الحقول مزركشة السيقان
على صدرها خطوط من دخان الغمام المسائي
ليس لأعمدة البراري ظلال من دخان
يعطر حوافيه بالمر واللبان
وعلى عكفة سيفه رموز عربية من أبجدية الفردوس

لك أفراح هذه الليلة تحت ظلال أشجار أميركا
لك أصوات طالعة من حناجر اليمامات السعيدة
لك شتاءات محملة بمطر البركات
لك هذه المسارح التي تلعب فيها قطعان الأيائل

لك حمرة معتقة لأشجان لغة قلبك
تعال يا حامل أقفاص النوارس
إلى تكايا الظل حيث هجعة الشمس الأخيرة
تعال.

أبهذه اللطافة تمر رياح الصباح وهي تداعب قسمات وجهك؟
فتعال تاركا العذارى تنتظر خمرة التينة على سطح لسانك
وشباك العصافير تنسج من نقائها ثوبا من حرير الشمس تسربل به
قامات عذارى صحراء العرب.

يوسف سعيد

* **الأب يوسف سعيد** الرئيس الروحي للطائفة السريانية في السويد التي انتقل إليها من بيروت عام ١٩٧٠. ترجم كثيرا من قصائدأفرام السرياني لمجلة شعر، وصدرت له المجموعات الشعرية التالية: الموت واللغة (١٩٦٨)، ويأتي صاحب الزمان (١٩٨٦)، طبعة ثانية للتاريخ (١٩٨٧)، الشموع ذات الاشتعال المتأخر (١٩٨٨)، السفر داخل المنافي البعيدة (١٩٩٣). وله مسرحية بعنوان المجزرة الأولى (١٩٦٧) وكتب نثرية متعددة.